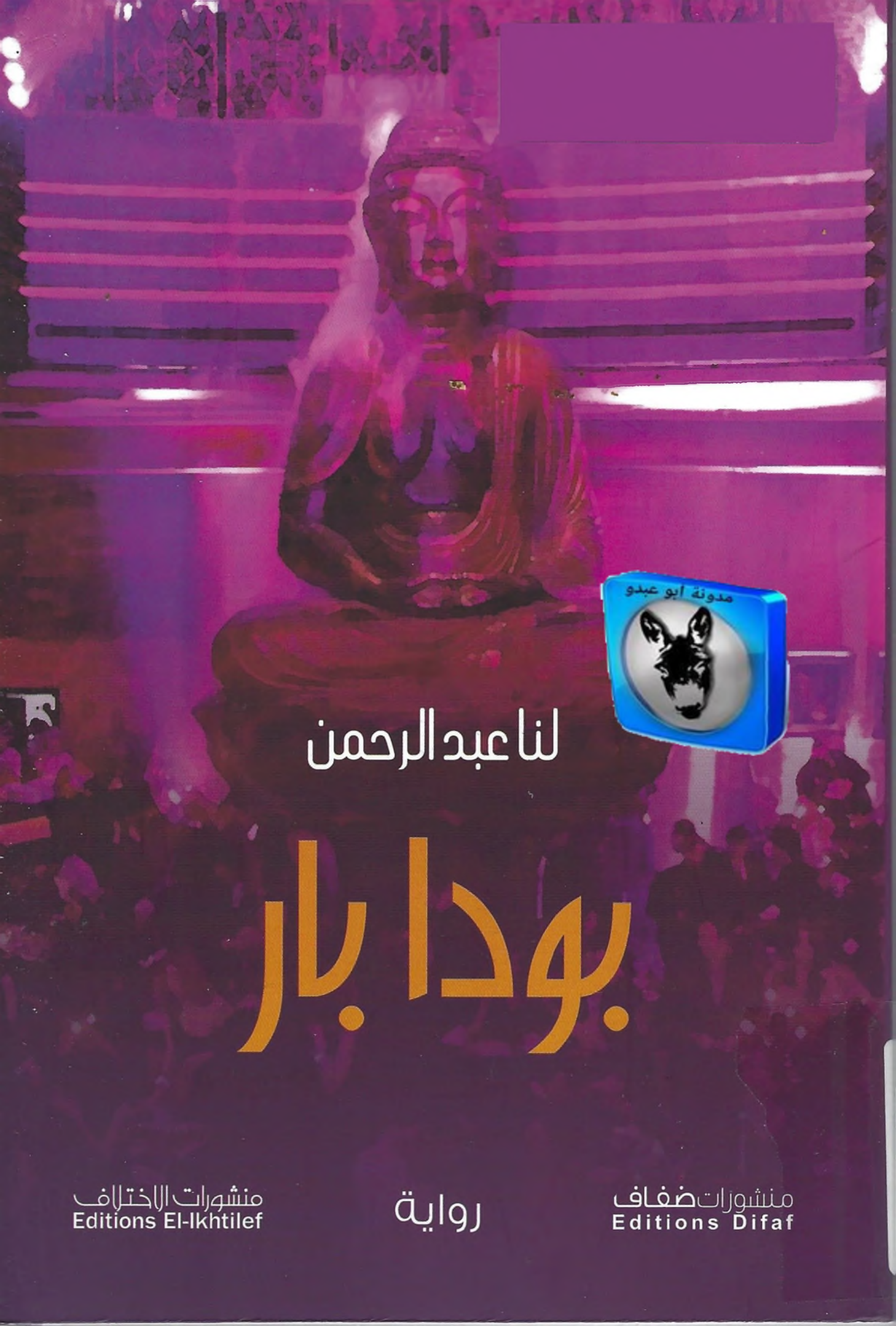

لنا عبد الرحمن

بودا بار

رواية

منشورات ضفاف
Editions Difaf

منشورات الاختلاف
Editions El-Ikhtilef

طبع في لبنان

بودا بار

رواية

لنا عبد الرحمن

منشورات الاختلاف
Editions El-Ikhtilef

منشورات ضفاف
Editions Difaf
editions.difaf@gmail.com

الطبعة الأولى

1442 هـ - 2021 م

ردمك 978-614-02-1852-9

جميع الحقوق محفوظة

منشورات ضفاف
Editions Difaf
editions.difaf@gmail.com
هاتف بيروت: 9613223227+

منشورات الاختلاف
Editions El-Ikhtilef
9 شارع محمد دوزي برج الكيفان
الجزائر العاصمة
هاتف 0776616609
e-mail: editions.elikhtilef@gmail.com

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأيَّة وسيلة تصويرية أو الكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو أيَّة وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات، واسترجاعها من دون إذن خطي من الناشر.

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي **الناشرين**

ليس هناك صدفة

الصدفة ضرورة قدرية

0

هذه المدينة محكومة بعتمة مغوية، تؤدي بكل من يحيا على أرضها إلى إدراك أنها مدينة «البُقع» المتجاورة.

مدينة طبقات حلوى «الميلفيه» شريحة تلو أخرى تفصل بينها طبقة من الكريما السميكة، وفي تجوالك هنا أنت حر بإطلاق، وسجين أبدي، ليس عليك سوى العبث بكل ما كان وسوف يكون، هكذا تتقن فن العيش والتملص مما يُمكن التورط به.

ليس من المجدي أن تنتمي إلى أي شيء، بل من المهم أن تحمل رأسا قابلا للعطب والتشكل من جديد رغم الذكريات السوداء، والقلب الأجوف.

أما البحر...

البحر الشاسع...

بحر هذه المدينة، لغز كبير، شاهد متواطئ على كل من استباحوه. شاهد عليك أنت أيضا.

المدينة غارقة في ظلام قسري، والبحر ليس بخير، لأن وجهه محجوب عن النوارس.

وأنت هنا تمشي وتمشي وتمشي، تتفرج على الشوارع والأحياء والأزقة والبيوت، تهرب، تستمع للهتافات الحقيقية، للتمتمات الخائنة، للصرخات الوقحة وتبحث عن وجهك الذي ضاع منك ألف مرة، وما عليك إلا أن تستمر بالهرب.

1

في يوم صيفي غائم قليلا، على غير عادة شهر يوليو في بيروت، وصلت دورا إلى «حي الأمير». لم تتوقع أن جريمة قتل ستكون في استقبالها عند وصولها للسكن الجديد الذي اختارته بناء على نصيحة الدكتور يوسف صديق والدها. في هذا اليوم قيل إن جمانة قُتلت في شقتها الواقعة في الدور الرابع من مجمع «عمارات ديبة». خلال سيرها في الشارع المضطرب من خبر الجريمة؛ تسارعت في ذهنها عدة أفكار حول هذا التزامن، لكنها واصلت خطواتها نحو الهدف الذي جاءت من أجله.

وقفت إلى جانب الطريق تستمع إلى شذرات كلمات تحملها نسمات هواء ساخنة، يرددها سكان الشارع ورواده:

- قُتلت أمس أم اليوم؟
- مسكينة أين زوجها؟

يشير أحدهم نحو شاب ثلاثيني أنيق.

- ذاك هو...

ملامحه جذابة، رغم آثار الصدمة التي تبدو عليه، قامته طويلة، وجهه مربع، وشعره بني ناعم يلامس عنقه.

ويتساءل آخر: «ألم يعرفوا هوية القاتل؟»

تناهت إلى سمع دورا أسئلة كثيرة تتكرر صيغتها بعبارات مختلفة، مع وصول سيارة الشرطة التي نزل منها ضابط أربعيني معتدل القامة،

شعره خفيف عند مقدمة رأسه، له عينان تشبهان عيني الفهد بلونهما العسلي المائل للأصفر، طلب من الجميع بحزم شديد الابتعاد عن مدخل العمارة، وهو يسير بخطوات سريعة يتبعه رجاله.

***

بخفة لا تتناسب مع سنوات عمره التي تجاوزت السبعين عاما، نزل الدكتور يوسف مهرولا من سلالم المبنى الذي قيل إن الجريمة وقعت في إحدى شققه. شعره أشيب، لحيته بيضاء غير مشذبة، بدا عليه التأثر الشديد، وهو يومىء برأسه للضابط الذي سارع نحوه ليسأله عن حقيقة الموقف. تابعت دورا الطبيب بنظراتها من بعيد، وبجانبه لوسي الخادمة السريلانكية، تقف وفي يدها قفص مستطيل فيه قطة صغيرة سوداء، تتكور في أحد جوانبه وحول رقبتها شريط أحمر، تُصدر مواءً خافتا لا يسترعي انتباه أحد.

لم تصمت لوسي خلال ركضها من الطابق الرابع إلى منزل الطبيب، تفوهت بعبارات وأتت بحركات تؤكد حدوث أمر جلل؛ لطمت وجهها وضربت رأسها، حينها استنتج معظم أهالي الحي وقوع مصيبة، قد تتعلق بجمانة التي سكنت الحي مع زوجها مروان منذ عامين ونصف.

كانت لوسي أول من اكتشف أن مخدومتها ممددة في سريرها، وفي رقبتها وصدرها عدة طعنات، لذا سارعت إلى استدعاء طبيب الحي. لكن الطبيب حين وصل إلى الشقة، وجد ما يدل على وقوع جريمة، لكنه لم يجد الجثة، شاهد بقع دم على السرير، وعلى الأرض، غير أن جثة جمانة لم تكن موجودة.

أصر الضابط على اصطحاب زوج القتيلة ودكتور يوسف ولوسي الشاهدة الوحيدة على رؤية الجثة، وبعض الجيران لأخذ أقوالهم، فيما الخادمة القصيرة السمراء تواصل نحيبها مؤكدة أنها شاهدت جمانة مطعونة في صدرها ورقبتها. لم تكن لوسي تريد الذهاب للشرطة، خافت من اتهامها بالمشاركة في الجريمة، وأن يطول أمد بقائها في الحجز. لكن الطبيب حاول تهدئتها مؤكدا بأنها ستعود برفقته، وفي حقيقة الأمر كان في قرارة نفسه متخوفا ألا يكون كلامه صحيحا، فلا يتمكن من إعادتها لو أصروا على احتجازها لأخذ معلومات كافية عن الضحية، خاصة وأن لوسي تملك مفتاح الشقة، وتعرف الكثير عن جمانة بحكم عملها بخدمتها منذ عام. بيد أن هذا اليوم ليس مثل باقي الأيام، لقد انتهت علاقة لوسي مع جمانة إلى الأبد، وصار عليها في حال خروجها من الحجز البحث عن مكان آخر تعمل به كي تستمر حياتها في هذا البلد، ولا تضطر للعودة إلى سريلانكا، حيث تنتظرها قضايا أخرى.

لم تكترث دورا بما شاهدته، فقد اعتادت خلال عملها التعامل مع مجرمين، ومختلين نفسيا، ومغتصبي أطفال، ومدمنين. تابعت ما يحدث بفضولٍ عابر قبل أن تقرر التوجه إلى المكتب العقاري الصغير أسفل «عماراتٍ ديبة» لتكمل إجراءات استئجار الشقة.

في المرة الأولى جاءت لمعاينة المكان، وعبر لقاء قصير جمعها دكتور يوسف مع ديبة مالكة العقارات، راق لها موقع الشقة القريب من وسط المدينة، دفعت جزءًا من المبلغ المطلوب، على أن تنتقل بعد عدة أيام للسكن بشكل نهائي.

مشت دورا نحو مكتب العقارات المجاور لشجرة صفصاف كبيرة تُلقي ظلالها على الشارع. كانت ديبة تجلس خارج المكتب على كرسي صغير لا يتناسب مع حجمها الأسطواني، تُدخن الأرغيلة بأنفاس متلاحقة بينما أسعد زوجها ومساعدها الأصلع الضخم يتدلى كرشه من بين فتحات القميص ويهتز وهو يحكي لها عن جريمة القتل وهي تنصت له بتركيز شديد، فالجريمة وقعت في إحدى الشقق التابعة لأملاكها، والجثة اختفت بطريقة غامضة. زفرت نفسا طويلا كأنها تقول في سرها: «أووف ارتحنا، ربما لو لم تمت هكذا كان علي قتلها لأخلص العالم منها»؛ ثم علت وجهها ابتسامة شاحبة حاولت إخفاء ما ورائها من أفكار، كما لو أنها تخجل من افتضاح فرحتها بقتل جارتها الشابة التي أزعجها وجودها ومجرد عبورها الشارع، ذاك المرور الطيفي الذي ينزع سلطة ديبة بهدوء شديد حين كان الجميع يتوقفون عن أداء مُهماتهم للتحديق بجمانة، من دون أن يبذلوا جهدا لإخفاء ذلك. ديبة نفسها تُدرك أنها اشتهت جمانة في لحظات سرية، اشتهاءً دفينا لا سبيل لتحقيقه، لكنها قُتلت، والشارع سيكون أكثر هدوءًا بعد رحيلها.

سرعان ما توقفت ديبة عن التفكير حين شاهدت دورا تقف بالقرب منها، موضحة أنها جاءت لإنهاء إجراءات إيجار الشقة حسب الموعد المتفق عليه، ابتسمت لها «ديبة» ابتسامة مرحبة، ثم سألتها: «قريبة دكتور يوسف.. صح؟»

أومأت دورا بالإيجاب، بينما ديبة تضع خرطوم أرغيلتها جانبا وتدعو دورا للدخول إلى المكتب، اهتزت الأساور الذهبية الكثيرة

في يدها البيضاء السمينة، وهي تقول: «الحكيم عزيز علينا، وكل مين جاي من طرفه.»

في لقائها الأول مع «ديبة» يوم جاءت برفقة دكتور يوسف، كان المكان مزدحما بوفد من السياح الأجانب الـذين يفضـلون السكن في شقق مفروشة بدل الفنادق، يومها كانت ديبة منهمكة في الحديث مع الرجل السمسار المرافق لهم.

تذكرت دورا كلمات الدكتور يوسف، وهما يسيران مبتعدين عن مكتبها:

«خلال سنوات الحرب الأهلية، كانت ديبة زعيمة المنطقـة كلها، عملت كل شيء: قتل، خطف رهائن، تهديد، وتـاجرت بكل شيء: سلاح، مخدرات، أدوية، احتكار مواد غذائية. قُتـل زوجها في البداية بعد أن بدأ في تنظيم ميليشيا صغيرة تحت زعـم حماية الحي، ثم قُتل ابنها الوحيد عند معبر السـوديكو، في قلـب بيروت، كان في السادسة عشر من عمره، ظلت جثته في الشارع حتى اليوم التالي، جُنت ديبة، ولم يكن هناك أحد حولها سوى من تبقى من الشباب المسلحين الذين أصبحوا تحت إمرتها بعد مـوت زوجها، صار لها قلب ميت، يقال إنها كانت تسـتمتع بـالجلوس قرب القناص وهو يتصيد القادمين من الجهة الأخرى من المدينـة، تشرب العرق وتقهقه ضاحكة والجثث تتساقط مثل العصافير.»

يومها، أشار الطبيب نحو تجمع البنايات الشاهقة وتابع كلامه:

«وضعت ديبة يدها على البيوت التي هجرها أصحابها بسبب الحرب، ثم فاوضتهم لشرائها بمبالغ زهيدة، وقـد رضـخوا لهـا لإدراكهم أنهم خاسرون في كل الأحوال، فـالبيوت سـتتهدم أو

ستُحتل من المهجرين؛ ثم في أوائل التسعينات قرب انتهاء الحـــرب هدمت كل البيوت القديمة وشيدت مكانها مشـــروعها الســـكني الجديد لتطوي صفحة الماضي وتُصبح الحاجة ديبة سيدة الأعمال.»

بعد انتهاء دورا من دفع المال والتوقيع على عقد الإيجار طلبت من الحاجة ديبة على استحياء أن تساعدها في العثور على من يقوم بتنظيف الشقة قبل أن تنتقل إليها، أشارت ديبة إلى أســـعد كـــي يتصرف... رفع حاجبيه واتسعت ابتسامته وهو يقـــول لـــدورا: «تكرم عيونك أستاذة».

2

أرادوا إبعادي عن جمانة الحبيبة، أخذوا جسدها بعيدا!

كأنها لم تكن هنا... هل ماتت حقا؟

أيها الأوغاد... يا أولاد القحبة، إنها زوجتي وحبيبة عمري. كيف لا يحق لي وداعها، دفنها!

لا.. لا... ما يحدث مجرد هذيان، عبث شيطاني لحرق ما عرفته معها من مسرات، نتوء كابوسي كي أبقى وحدي في أرض جرداء. ما الذي اقترفته يداي في هذه الدنيا كي أفقد كل من أحببت؟ كي أعود وحيدا من جديد!

لا يمكنني تصديق ما يقال لي... كيف ماتت محبوبتي؟ كيف طُعنت؟ هل حدث هذا حقاً؟

أتخيل عينيها، تبدوان بلا لون، لطالما كانتا بلا لون ثابت، فيهما زرقة المحيط واخضرار العشب، تتغيران مع الفصول، ووفق ألوان ثيابها وحالتها المزاجية، أما أهدابها الشقراء الكثيفة فكانت مثل قوس قزح في أوج لمعانه، مغو وساحر.

حكت لي جمانة ذات مرة ورأسها على كتفي أنها تكره الميتات التي تكسر الجسد، وحين سألتها ماذا تقصد بعبارة: «تكسر الجسد»، قالت إنها تتمنى ألا تموت في حادث سير، أو مرض يعذبها طويلا ويدمر خلايا جسدها ويذوي جماله، لم تحكِ عن احتمال القتل بأن يشوه جسدها، لم تظن أن هناك من يتمنى قتلها.

سألتني مرة: «ما رأيك بالغيبوبة! إنها ميتة عذبة لأنها لا تحدث دفعة واحدة، بل تمنح أحباء الشخص وقتا ليجلسوا حوله ويتحدثوا معه، أن يعتذروا له، ويندموا على ما فعلوه، وهم متأكدون أنه لن يجيبهم أبدًا.»

يومها قلت لها: «أنتِ قاسية وأنانية، لأنك تفكرين في تجزئة الموت وإيلام كل من حولك». بكت، ذرفت دموعًا كثيرة، رددت بينها مرات وشفتاها ترتجفان، وعيناها يغلبهما التأثر: «مروان حبيبي.. مارو، أنا أحبك كثيرا.»

يا ألله... كيف تأخذ جمانة مني؟! كيف تترك يدا غريبة تعبث بجسدها وأنا غائب، يد آثمة تطعن كل جمال العالم بهذه القسوة، وتترك جسدها مغدورا ينزف دماءه على الأرض، ثم تحرمني من رؤية هذا الجسد، من لثمه وضمه وشمه للمرة الأخيرة قبل غيابه الأبدي.

آه يا حبيبتي كيف أعيش في هذه المدينة وحدي من دونك؟

آه كم تشبهين هذه المدينة؛ عشاقك كُثر، وأحباؤك قليلون.

من الذي قتلته سعادتنا غيرةً؟

من الذي أراد الانتقام منا بأن لا تكون حبيبتي، ست هذه الدنيا على وجه الأرض؟

يا جمانتي، كيف ترحلين وتتركينني وحيدًا في هذا العالم، من سيحكي لي الحكايا المخيفة، ومن سيمنحني الوهم بأنك ستحملين يوما بالطفلة التي حلمنا بها، لكنك رحلت قبل أن يتحقق أي شيءٍ مما حلمنا به سوياً. كنتِ تقولين عن نفسك بأنكِ لا تصلحين لإنجاب الأطفال، وكنتُ أوافقك. أنت الساهية طوال اليوم لم يكن ينفع أبدًا أن تصيري أمًا.

ماذا كان سيحدث لو تركوا جثتها و لم يأخذوها بعيدا؟

ماذا كان سيحدث لو لامستُ وجهها وخصلات شعرها؟

تمنيت امتلاك قدرات زومبـــي كي آكلها، لمـــاذا لا آكـــل حبيبتي كي تستقر في جوفي إلى أبد حياتي! تمنيت أن أُضفر شعرها الطويل للمرة الأخيرة، بعد ذلك سوف أحضر ألبوم صورنا معـــا، لأتفرج عليه وخلال هذا الوقت سنشدو بكل الأغنيات التي غنيناها سوياً. لكنهم أخذوها بعيدا. ولن أشاهد جمانتي مرة أخرى. مضت من عالمي وها أنا أعود إلى قوقعتي الأولى وحيدًا، معزولاً، كما لو أني لم أعش هذا الحب الكبير يومًا.

الحب الذي جعلنا ننام على سرير مـــن رمـــاد، مغمـــورين بالنشوة، نظن أنها لحظة أبدٍ سوف ندوم غافين في فقاعتـــها غـــير المرئية. الحب الذي لا يأتي في الحياة إلا مرة واحدة، ولا يصادفه إلا الأشقياء.

3

بعد مرور عدة ساعات، عاد الطبيب يوسف إلى بيته المعزول عن العالم الخارجي بكل صخبه وضجيجه، برفقته لوسي التي ظلت صامتة طوال الطريق، في الداخل أحس ببعض السكينة. عرف أن حفيده غير موجود في المنزل، إذ لو كان هنا لصدحت موسيقى صاخبة من غرفته، أو كان جهاز التليفزيون ثابتًا على إحدى قنوات «الفيديو كليب» الأجنبية.

ظلت لوسي جالسة في الحديقة وبجانبها القفص المستطيل الذي تتكور فيه قطة مخدومتها الراحلة، دعاها الطبيب للدخول إلى البيت لكنها رفضت قائلة إنها ستترك القطة وتذهب لشراء بعض الأغراض وتعود بعد قليل.

كان في الحي مجموعة من المباني المتنافرة بسبب اختلاف الطراز المعماري، البيت الذي يسكنه الطبيب مع حفيده يوسف، يُشكل كيانًا منفردًا، رغم أنه لا يشغل مساحة واسعة جدا لكنه مُشيد على طراز البيوت اللبنانية القديمة من حجر صخري أبيض كبير، في واجهته قناطر ثُلاثية اشتهرت بها بيوت لبنان مطلع القرن العشرين، بيت مختلف عن البنايات التي تحيط به، يتشابه مع بيوت القرى والضيعات، تُظلل حديقته شجرة تين ضخمة من الجانب الأيمن، وشجرة جوافة وشجرتا برتقال من الجانب الأيسر، أما المساحة الصغيرة قرب شرفة البيت فقد زرعها الطبيب ببعض

النباتات العشبية مثل النعناع والريحان والروز ماري وحب الرشاد الذي يشرب منقوعه مساءً لأنه يساعد في تخفيف آلام المفاصل. يبدو جزء من البيت مخفيًا عن الأعين مما يجعله أكثر عزلة وانفصالاً عن الأزقة المحيطة به، والتي كانت شوارع في يوم ما، لكن مع مرور الزمن، وتحول طراز البناء، وعمليات الاستيلاء على البيوت التي قامت بها ديبة ومن معها، صار البيت مطوقًا ببنايات عالية تحجب ضوء الشمس عن شرفات غرفه الأربع ذات الشبابيك العريضة.

لم تعد الشمس تعرف طريقها للبيت، إلا من خلال المدخل الرئيسي ذي الشرفة الواسعة التي يفصلها عن الشارع ممر يؤدي إلى باب حديدي قصير يُمكن لأي شاب أن يعبره بسهولة، وهذا ما كان يفعله يوسف الصغير حين يرن الجرس أكثر من مرة فلا يسمعه جده لانهماكه في القراءة أو في معاينة إحدى الحالات الطارئة التي تفد إليه في أي ساعة من ساعات النهار أو الليل.

في يوم ما كان هذا البيت واقعًا على خط تماس «السوديكو-الأشرفية»، الطبيب يوسف كان يواجه مصيره بشكل شبه يومي حين يعبر الشارع الذي يفصل بين بيروت الغربية وبيروت الشرقية، ليُخرِج شظية من ساق مصابة، أو لينقذ مُسلحًا على وشك الموت. في الشرقية كان اسمه «دكتور جو»، وفي الغربية «الحكيم يوسف» وفي كلا المكانين ظل محبوبًا بشكل لا يمكن تصديقه، كان صديقًا للمسلحين في لحظات ألمهم، يحبون هدوءه، قدرته على تحمل فظاظتهم وبذاءاتهم، ومداواة جراحهم بلا لوم. لم يكن يوجه لومه لأحد، مُدركا أن رحى الحرب تدور في طاحونة أكبر من

سيطرتهم، وأن المسلحين الذين يُطلقون الرصاص على جيرانهم في الحي المجاور - سواء كانوا واعين أو مخدرين - لا يمكنهم اتخاذ مسلك آخر، لأنهم مجرد محاربين في رقعة شطرنج ضخمة، ثمة من يتحكم بها في الخفاء.

جلس الطبيب على كرسيه الهزاز، مال برأسه إلى أعلى، وضع غليونه جانبًا، مسح وجهه بيديه وفرك عينيه، ثم تمطى، كان يحس بانقباض شديد وحموضة ترتفع من أعلى معدته إلى حلقه، عقب أحداث هذا النهار الذي بدأ مع صراخ لوسي، ثم خبر قتل جارته الشابة الجميلة، ورؤيته آثار دمائها على الأرض.

رغم أنه طبيب جراح، ورغم مشاهد الألم والموت التي شاهدها على مدار سنوات حياته الطويلة، إلا أن موت جمانة واختفاء جثتها بهذه الطريقة الغامضة، ترك في داخله إحساسا مُرًّا بالأسى غير مفهوم. لعل المرات التي شاهدها فيها منذ قدومها إلى هذا الحي لم تكن قليلة، ولا كثيرة، ربما أربع أو خمس مرات حين طرق زوجها مروان باب بيته، وطلب منه القدوم لعلاجها من زكام شديد، أو من آلام في معدتها، لأنها أفرطت في الشراب. كان يصف لها العلاج ويغادر بسرعة، رغم محاولات زوجها دعوته لفنجانٍ من القهوة، إلا أنه جفل من رعشة الإثارة التي حركتها به تلك الشابة، وحاول تجاهل الأمر كأنه لم يحدث.

لم يعرف سكان الحي معلومات كثيرة عن جمانة، سوى أنها ذات جمال أخاذ، وصمت طويل، فلا يذكر أحد من السكان تبادلها أي حوار معهم إلا عبر كلمات مقتضبة، وشبه ابتسامة، وإيماءات عابرة. كانت خادمتها السريلانكية لوسي صلة الوصل

بينها وبين أهل الحي، تقوم لوسي بدفع الإيجار لدية، وتتعامل مع الناطور الذي يُحصل الفواتير، كما تتصل بالسوبر ماركت لشراء حاجيات البيت؛ لذا كان الجميع يعرف لوسي أكثر مما يعرفون ساكنة الشقة.

«ليس من العدل أن يبدأ يومك بجريمة، يا له من نهار قاس يا حكيم!»

ردد الطبيب هذه الكلمات لنفسه بصوت مُرتفع واتجه إلى المطبخ كي يجهز طعامًا خفيفًا.

لم يغادر دكتور يوسف بيروت طوال حياته لا في السلم ولا في الحرب، لم يفكر بالهجرة كما فعل كثيرون، ولم يسافر للخارج سوى في سفريات صغيرة لأيام عدة، لكن ثباته في مكان واحد لم يحل دون حدوث تحولات كثيرة في حياته، آخرها حين ماتت زوجته وتركته وحيدا مع حفيده الصغير الذي لم يكن قد تجاوز عامه السابع.

لكن المدينة التي أخلص لها تغيرت كثيرًا عما كانت عليه منذ خمسين عاما؛ بيروت لم تعد مدينته التي عرفها. بيروت القديمة ليست هي بيروت اليوم، مدينته لم تعد موجودة إلا في ذاكرته وفي صندوق الصور، وبعض الأشياء الصغيرة التي احتفظ بها من الماضي.

انتشرت رائحة البيض المقلي بالزبدة في المطبخ، عادة قديمة تعلّمها من زوجته الراحلة، مجابهة الحزن بالطعام اللذيذ، لم يكن لديه قدرة على إعداد أي شيء آخر غير بيضة مقلية، سيكتفي بتناول بياضها مع قطعة من الجبن، ورغيف من الخبز الأسمر. حرك

إبرة الراديو الصغير الذي يضعه منذ سنوات في المطبخ، صدر عنه وشيش خفيف في البداية، قبل أن يستقر على أنغام أغنية لوديع الصافي يقول مطلعها: «دار يا دار.. يا دار...»

رن جرس الباب ثلاث مرات متتالية، عرف بسرعة أن القادم هو يوسف الصغير، سريعا علت جلبة في المكان، دخل برفقة الجارة إيمان، فقد سمع صوت نقرات حذائها الرفيع على الأرض، بينما حفيده ينادي عليه: «وينه الحكيم جو؟»

ظهر الشاب الأشقر عند باب المطبخ، نظر إليه جده نظرة عتاب قصيرة ثم ابتسم له قائلا:

- لماذا أحضرت إيمان معك؟

- لا.. التقينا صدفة...

يعرف الطبيب أن حفيده يكذب، لكنه اكتفى بهز رأسه والخروج للترحيب بالجارة، التي ستساعده ابتسامتها وسلاستها في التعامل مع مصائب الحياة الكبرى، على الإحساس بالبهجة في هذا اليوم التعس. اعتادت المرأة الخمسينية التدخل في خلافاته المستمرة مع حفيده، تقريب وجهات النظر، وتصحيح سوء الفهم، هي امرأة مطلقة، وأمٌ لثلاث بنات أصغرهن في الخامسة عشر، تُعارك الحياة بمفردها، وتحتمل الإزعاجات التي يقوم بها طليقها، كما تدير محلا صغيرا اسمته «قهوة بيتنا»، ورغم هذا تتحلى بهدوء وتفاؤل لطالما غبطها الطبيب عليهما.

دار في البداية حوار مقتضب عن جريمة القتل، لم يشارك يوسف الصغير به لأنه كان يتذكر المرات القليلة التي تقاطعت طريقه مع جمانة؛ كان يشده جمالها وتغيظه ابتسامتها، ابتسامة امرأة

ناضجة لطفل تستلطفه وتتمنى لو كان في حقيبتها قطعة شوكولا لتقدمها له. انتهى الكلام بتعليق إيمان بنبرة حزينة: «مسكينة يا خسارة جمالها بالموت.»

سرعان ما بدأ نقاش طويل حول رفض الحفيد دراسة الطب، وإصراره على دراسة الموسيقى، دافع كل منهما عن وجهة نظره، ولم يصلا إلى حل نهائي يحسم الموقف. لم يخمن الطبيب أن ميل حفيده للموسيقى سيتحول إلى رغبة بأن تكون مهنة المستقبل إلا في اليوم الذي فاجأه بإحضار أكثر من آلة موسيقية وضعها في غرفته، وصار يستقبل رفاقا في مثل سنه يعزفون طوال الليل، وتخرج من تحت أيديهم طنطنات تجرح سمع الطبيب الذي لم يألف سمعه إلا كلاسيكيات الموسيقى الأوروبية والشرقية، كان دكتور يوسف يترنم بأغنيات قديمة لعدة مطربين، لديه أذن موسيقية في غناء اللحن من دون نشاز، يستمع للسمفونيات وتروق له موسيقى باخ، كما يطرب للقدود الحلبية، والمواويل العراقية، ويهيم مع ألحان فريد الأطرش، وصوت أم كلثوم مساءً، وفيروز عند الصباح. حاول الجد إقناع حفيده بأهمية اكتشاف الطرب العربي إلا أن يوسف الصغير ظل يُظهر لامبالاة بكل ما يسمعه من جده في هذا الشأن، وشؤون كثيرة أخرى.

ورغم هذا ظل الجد يتجنب أن ينتهي الأمر بينه وبين حفيده إلى خلاف كبير، أو مفاوضة الشاب المراهق على المحبة، فقد كان حاضرًا لنجدته في أي وقت. تذكر المرة الوحيدة التي دخل فيها إلى «المخفر» منذ عامين عندما كان حفيده في السادسة عشر من عمره بسبب عراك بين الشبان في الشارع انتهى بقدوم الشرطة

وأخذهم جميعا إلى المخفر. قاسية جدًا تلك اللحظة التي شاهد فيها الصبي المراهق ويداه مكبلتان بالأصفاد، حتى وصوله وكتابته تعهداً بعدم تكرار الحدث وخروجه برفقته. لكن فكرة مساحة الحرية التي يُطالب بها يوسف الصغير ظلت تتسع وتتسع - من وجهة نظر الجد- على حساب دراسته، وسائر تفاصيل حياته، لذا حين تحول اهتمامه للموسيقى شجعه في البدء كي يفرغ طاقاته في شيء يحبه، لكن كل الأمور مع حفيده تتطور سريعا حتى تكاد تخرج عن السيطرة، وهذا أكثر ما يقلقه في الحياة، كلاهما هو ويوسف ربطهما القدر معًا، فلا مفر من أن يعتني أحدهما بالآخر، إلى أن يشاء الله.

خلال جلستهم، أعدت إيمان القهوة مرتين، وانتهت الجلسة بأن استفاضت هي في الحديث عن مشاكلها مع بناتها الثلاث، وطليقها الكسيح الذي يأتي كل عدة أيام يلوح بعصاه ويهددها بتكسير زجاج المحل إن فكرت يوما بالزواج.

علّق يوسف الصغير على حكايات إيمان وهو يضحك بدعابة ويشير بسبابته نحو جده قائلا: «خسارة.. يعني مش رح تتزوجها.»

علت ابتسامة خجولة وجه الطبيب، وهو يرد على حفيده بجملته التقليدية في مثل هذه المواقف: «عيب يا ولد»، بينما إيمان تهدده بأنها لن تُدافع عنه مرة أخرى.. قهقه يوسف مبتعدًا نحو مدخل الباب الرئيسي، حين رن جرس الباب.

دخل يوسف متأبطًا ذراع دورا، وهو يقول:

- جاء من سيقنعك بأن تتركني أدرس الموسيقى.

استقبل الطبيب دورا ببشاشة بدت على ملامح وجهه وهـــو يدعوها للجلوس بجانبه، قدمها إلى إيمان بأنها ابنة صديقه وجارتهم الجديدة في الحي، أخبرته دورا عن قيامها بإتمام الإجراءات مع ديبة، وأنها استلمت المفتاح، وتنتظر العثور على من يساعدها في تنظيف الشقة قبل أن تُحضر أشياءها من الفندق وتنتقل بشكل دائم.

صمت الطبيب قليلا، كأنه يتذكر شيئا ما، ثم قال موجهـــا حديثه لإيمان:

- سأطلب من لوسي بعد عودتها مساعدة دورا، ما رأيك؟
- لوسي خادمة جمانة!
- نعم.. ستعود بعد قليل، لقد تركت أشياءها هنا، وهي في حاجة إلى العمل.

ساد صمت للحظات قطعته دورا بالسؤال عن القطة المتروكة في الحديقة داخل قفص صغير، وأنها تموء «لا بد أنها جائعـــة»، ثم قامت متجهة إلى المطبخ لتفتح الثلاجة بحثاً عما تطعمه للقطة.

4

بعد أن انتهت لوسي من مهمتها، طافت دورا في أرجاء الشقة الصغيرة وهي تحمل مبخرة تفوح منها رائحة بخور العود والصندل، ألقت الملح في الزوايا وهي تتمنى إقامة طيبة في المكان الجديد؛ واظبت دورا على هذه الطقوس التي تعلّمتها من زوجة أبيها وفاء، كلما حل غرباء في ضيافتهم وأقاموا لديهم أيامًا، تقول بعد أن يغادروا: «علينا تطهير المكان من طاقتهم، مَن يدري ما الذي تركوه هنا!»

ابتسمت دورا وهي تمشي في مكانها الجديد شاعرة بالغبطة، علقت على الجدران كل اللوحات والصور التي أحضرتها معها من بلدان مختلفة، كما أن اختيارها لألوان الأثاث من الأزرق الفيروزي والبرتقالي يوحي بالطقس الإستوائي الذي زاد من حضوره أوشحة هندية غطت بها جوانب الأريكة إلى جانب شجرتين من نخيل الشاميدوريا وضعتهما في زاويتين متقابلتين، مع شموع بألوان متعددة في صينية صغيرة من النحاس، ينعكس عليها ضوء أصفر من أباجورة جانبية.

تذكرت مشاهد من حياتها الماضية، بينما لوسي تُتمتم بعبارات غير مفهومة، أدركت دورا أن الخادمة تنتظرها كي تأخذ أجرتها، وضعت المبخرة ووعاء الملح جانبًا، نقدتها ضعف المبلغ المتفق عليه، مما دفع الخادمة أن تقول لها:

- خليني معك.. ما عندي مكان أروح عليه.. مدام جمانة رحلت.. كانت كريمة معي مثلك.. أنا أطبخ، وأنظف، و.. و.. و

ابتسمت لها دورا قائلة:

- لا ينفع يا لوسي، أنا أعمل كثيرًا، وأسافر، أعتمد على نفسي بالأمور اليومية، من المؤكد أنك ستجدين عملاً، عودي إلى بيت دكتور يوسف الآن، وإن احتجت إلى شيء أنا هنا.

تابعت الخادمة توسلاتها لدورا أن تبقيها «كم يوم»، بعدها ستتدبر أمرها وترحل، تتكلم بانفعال، وهي على وشك البكاء:

- لا أريد العودة إلى سريلانكا...

رضخت دورا لطلبها بعد تردد لم يطل زمنه لأكثر من دقيقتين، ثم قالت بحسم:

- عدة أيام فقط.

أحضرت لوسي أغراضها القليلة التي تركتها في بيت الطبيب، والقفص الصغير الذي يحتوي القطة السوداء، ما أن فتحته حتى سارعت القطة للخروج منه والاختباء تحت أحد المقاعد.

ما اسمها؟ سألتها دورا وهي تتابع بعينيها حركة القطة، وتنتابها رعشة غريبة، إنها المرة الأولى التي تتعامل فيها مع قطة سوداء.

- إنه قط وليس قطة، اسمه نانو.

مضت دورا نحو غرفتها مبعدة عن ذهنها ما يقال عن سوء الطالع الذي تجلبه القطط السود.

***

في ليلتها الأولى لم تتمكن دورا من النوم. منذ الساعة التاسعة مساءً بدأت ترتفع أصوات موسيقى روك صاخبة. وضعت سدادات الأذن، دفنت رأسها تحت الوسادة، لكن بلا جدوى، كانت الموسيقى تخترق الجدران وتتسلل إلى كل جزء من جسدها.

مشت في الشقة محاولة العثور على أبعد نقطة مكانية عن الصخب، لوسي تغط في نوم عميق في غرفة صغيرة بجانب الصالة، يرتفع صوت تنفسها حتى يكاد أن يكون شخيرًا، رغم أن الصالون وغرفة النوم في الجزء الصاخب المطل على الشارع، بينما المطبخ والحمام في الجانب الآخر. أضاءت دورا النور وجلست على أحد كراسي المطبخ، خفت صوت الموسيقى نسبيًا إلا أنه من الصعب عليها النوم. قررت في المستقبل القريب أن تستعيض عن طاولة المطبخ بصوفا تحولها إلى سرير للنوم عند الضرورة في مثل هذه الحالات، لكن الآن سوف تعاود العمل، هذا هو الحل الأنسب كي تنشغل عما يحدث في الخارج. فتحت جهاز «اللاب توب» على ملف يحمل عنوان: «لاجئات»، وبدأت في تدوين ملاحظاتها، المكتوبة على الأوراق بجانب كل حالة.

في الساعة الثانية عشر إلا ربعًا ليلاً، رن جرس الباب ثلاث مرات متواصلة، حين نظرت دورا من العين السحرية شاهدت امرأة لا تعرفها، فتحت الباب لتجد سيدة قصيرة القامة، نحيلة، تجاوزت الستين من عمرها بسنوات أو ربما أكثر بكثير، ترتدي عباءة طويلة بألوان صاخبة تشبه عباءات ألف ليلة وليلة المرسومة في الحكايات، شعرها طويل جدا، أبيض تماما ولامع، مضفر في ضفيرة تمتد إلى جانب كتفها الأيسر.. لو كانت دورا تؤمن بحكايا

العفاريت والأشباح والجنيات، ستخاف من امرأة مجهولة تقف أمام عتبة بيتها عند منتصف الليل، وتبتسم لها ابتسامة غامضة.

- أنا جارتك هيام، شفت نور مطبخك مضاءً، وسَمِعتُك تتحركين. في الحقيقة بسبب طول قامتك أرى جزءًا من رأسك عبر شباك المطبخ، ولأنك جديدة على الحي عرفت أنك تعانين الأرق بسبب صوت الموسيقى الصاخب.

تعجبت دورا من تلك المبادرة لاقتحام عزلتها، والتدخل في شئونها، ولما ظلت صامتة و لم تضف إلا كلمة «آه فعلا»، عادت هيام للكلام وهي تشير نحو باب شقتها المفتوح قائلة مع ابتسامة أكثر ودًا:

- تعالي اجلسي معي قليلاً! لنتعارف، أصبحنا جيران!

نظرت دورا إلى شقة جارتها، التي يفصلها عنها ممر قصير معتم قليلاً، لمحت سجادة طويلة تمتد عند مدخل الشقة، ولوحات كثيرة معلقة على الجدران، وقفص عصافير موضوعًا عند المدخل تماما.

- لم لا؟!

أخذت دورا مفتاح شقتها، أقفلت الباب ومشت خلف المرأة العجوز التي ألقت ضفيرتها البيضاء إلى الخلف وسارت بخفة وهي تتبعها شبة منومة.

«هالو.. هالو..» ارتفع صوت ببغاء من قفص قرب الباب ما إن دخلت دورا الشقة، قهقهت هيام قائلة: «هذا روخو يرحب بك». ثم تابعت:

- نادمة على اختيار هذه الشقة أليس كذلك؟

أومأت دورا برأسها، ثم قالت:

- في الحقيقة نعم، لأني أحتاج للهدوء ساعات طويلة، حتى أتمكن من العمل، والنوم.

لم تسألها هيام عن عملها، بل استرسلت:

- سوف تعتادين، كما أن هذا الصخب مع نهاية الأسبوع فقط، في يومي السبت والأحد.
- لا أظن أني سأعتاد.
- أو سترحلين إلى مكان آخر، لكن لم يرحل أحد حتى الآن، من يأتي إلى «حي الأمير» يبقى فيه، أو يرحل إلى المقبرة.

صمتت قليلاً، ثم تابعت قائلة مع ابتسامة مرحبة:

- هل تشربين زهورات؟

سرت قشعريرة في جسد دورا، وهي تسمع كلمة مقبرة، لا بد أن جارتها تُلمح لجريمة القتل التي وقعت في اليوم السابق. لاحظت أن هيام تكرر كلمة «يا تسلميلي» بين جملة وأخرى، وكأنها تستعيض بالكلمة عن مناداتها باسمها؛ ثم سألتها هيام إن كانت لا تمانع في إضافة قليل من القرفة إلى الشراب الساخن.

تأملت دورا الشقة بتفاصيلها الغريبة، رأس غزال معلق على أحد حوائط الصالون، مجموعة من الصور على الجدار المقابل يبدو أنها تعود لهيام في كل مراحل حياتها، عدد كبير من الصور بالأبيض والأسود، في إحدى الصور تظهر فتاة شابة بجمال آسر على رأسها تاج صغير تتدلى منه ألماسة على جبينها، في صورة أخرى تلتف حول عنقها قطعة من فراء ثعلب تتقاطع يداها الاثنتان عند فمه، في

بعض الصور يظهر معها رجل وطفل، لكن معظم صورها وحيدة، خاصة الملونة منها. وفي آخر الصالة على الأرض لاحظت دورا مجموعة من الرسوم غير المكتملة وألوان كثيرة مبعثرة بجانب قطعة من فروة خروف، يبدو أن هيام تستخدمها للجلوس.

انتشرت رائحة قرفة ممزوجة بالزهورات، بينما المرأة العجوز تصب السائل الساخن في فنجان أبيض من البورسلين. رمقت دورا بنظرة لطيفة وهي تقول:

- عرفت أنك تسكنين وحدك مثلي، هل لديك عمل في الصباح؟
- آه أحيانا، عملي غير محدد بوقت.

حركت هيام يدها ثم أمسكت بمجموعة من الأوراق خمنت دورا أنها أوراق لعب، لكنها كانت مخطئة لأن هيام بادرتها قائلة:

- هل تحبين أن أقرأ لك طالعك في ورق التاروت، كي نتسلى قليلا؟
- الآن! لا، لا أرجوك، لا تفعلي... لا أحب هذا.
- غريب... الجميع يحبون، يأتون ويدفعون لي المال لمعرفة ما يخبئ لهم الغد.
- توقفتُ عن قراءة الطالع منذ أعوام كثيرة؛ حين كنتُ في الثامنة عشر من عمري قال لي عراف مُسن أني لن أنجب أبداً.
- وهل صدقته؟
- نعم، هذا ما حدث فعلاً!

- غبية... اعذريني لقول هذا، لكن نحن لا نعلم الغيب. نحن نقول نبوءة، دائماً هناك احتمال لخيبتها. ألم تسمعي حكاية العراف الذي ذهب إلى ستالين ليقول له أن لديه نبوءة بشأنه؛ حين ذهب الحُراس إلى ستالين وأخبروه بما قاله العراف، أمرهم أن يقتلوه حالا، قال: «لو كانِ لديه نبوءة حقاً، كان سيعرف أني سوف أقتله.»

أمسكت دورا فنجانها، وحدَّقت في وجه جارتها المحفور بتجاعيد عميقة على بشرتها البيضاء، لها عينان حادتا الزرقة من الصعب النظر إليهما طويلاً. بدت لها هيام مثل ساحرة في أحد أفلام سلسلة «هاري بوتر» وهي تعرض عليها أن تفتح أوراق التاروت في هذا الوقت المتأخر من الليل.

5

أحبت دورا الحي لأنه هادئ، كما بـــدا لهـــا أول مـــرة في الصباح، ولأن موقعه مميز، قريب من بيروت بقسميها الافتراضيين: الشرقية والغربية، ومن الممكن التحرك منه أيضا نحو طريق الجبل، أو البحر. هذا بالإضافة إلى وجود سوبر ماركت، وصيدلية، ومحل مناقيش، ومطعم صغير يقدم الفـــول والفلافـــل والفتـــة، ومحـــل خضروات وفاكهة، ومزين شعر نسائي، ومخبز صغير للحلويـــات، هذه التفاصيل تعني دورا كثيراً، لأنها نادراً ما تطبخ، وكـــثيرا مـــا تُداهمها نوبات الصداع، أو آلام المعـــدة والقولـــون العصبـــــي، ولسبب آخر أكثر أهمية أنها تتمنى أن يقوم آزاد بزيارتها ذات يوم، حينها ستشتري الخضار واللحوم لو خطر له أن يعد لهـــا حســـاء الآش، أو الكباب الإيراني.

في الصباح، عاد الحي لهدوئه كما شاهدته أول مرة، وهـــي تعبر الشارع التفتت نحو يافطة «البار» الذي أُغلقت أبوابه عنـــد الفجر، لفت انتباهها الاسم «بودا بار»، لم تتمالك نفســـها مـــن الضحك، حتى أن الفوّال نظر إليها بدهشة فيما يده اليمنى تهـــرس حبات الثوم التي سيضيفها إلى طبق الفول.

اقتربت من المبنى الذي يشغل البار الطابق الأول منه، وجدت ورقة كبيرة ملصقة عند المدخل، كُتب عليها البرنـــامج اليـــومي: الخميس والجمعة سهرة طرب شرقي، الاثنين موسيقى وأغنيـــات

تركية وهندية، الثلاثاء لعشاق الموسيقى الخافتة، والأربعاء للأغاني الفرنسية والإسبانية الكلاسيكية، والسبت والأحد موسيقى منوعة غربية وشرقية.

مضت دورا في طريقها وهي تفكر بكلمة «بودا بار»، وتجاور كلمة «بودا» مع كلمة «بار»، جمعهما معًا في مفردة واحدة تكون دلالة عن ذروة الروحانية والمادية في آن واحد. تذكرت الجملة التنبيهية المباشرة التي قرأتها خلال رحلتها إلى تايلاند -البلد الذي يُدين معظم سكانه بالبوذية- تقول: «لا تستخدموا كلمة بودا مع كلمة بار، هذا يدل على عدم احترامك لبوذا.»

بوذا يُمثل حضور الله عند البوذيين، لذا فكرت أن هذا التجاور بين المطلق والملموس، ربما هو الذي جعل من موسيقى «بودا بار» تحظى برواج مثير عند مستمعيها، كما حظيت الأماكن التي حملت الاسم ذاته بخصوصية تميز المكان مع ديكورات وألوان تستدعي الغموض في حضور تماثيل بوذا، وغياب موسيقى «الزن». في سنوات مراهقتها عرفت موسيقى «بودا بار»، وأحبتها جدا، ظلت تستمع إليها لسنوات، لاحقا وهي في نيبال حين حضرت الصلاة البوذية في أحد المعابد، واستمعت لموسيقى الزن، أدركت أنه لا صلة تجمع بين الموسيقى الغربية التي تسمعها، وتلك الأصلية القادمة من أعالي جبال التيبت، التي تؤلف بين نقرات آلة تشبه الدف، وأصوات الطبيعة، وهمهمات الصلاوات البديعة.

استعادت للحظات ذكرياتها مع تمارين اليوغا، وجلسات التأمل الطويلة، وانهماكها لسنوات في القراءة عن بوذية الزن... كل هذا يبدو بعيداً جداً عنها الآن، كما لو أنه حدث مع فتاة

أخرى. لكن ظلت معها كلمات المانترا التي استقرت في داخلها، وكررتها مرارا. ساعدتها موسيقى تلك المانترا على تجاوز صعوبات كثيرة، كانت تتساقط من داخلها، وتتلاشى في فضاء الكون الشاسع، فلا يبقى لها إلا الانتظار والتسليم.

يوم أخذت قرار العودة من أستراليا والانتقال إلى بيروت راودها خاطر أنها تبدأ مرحلة مختلفة من حياتها، التحولات التي حدثت خلال العامين الأخيرين كثيرة مقارنة بسياق حياتها الخاصة التي لم تكن تتغير سوى على مستوى السفر والعودة، ولقاء الغرباء، معرفتهم، مساعدتهم، ثم الرحيل عنهم، وجوه ووجوه التقتها ولا تذكرها كلها، لكنها تذكر بعض الحكايات مثل وشم لا تذوب زرقة حبره بماء البحر.

لكن حياتها لم تتغير، مركز عالمها ظل ثابتاً حتى الثالثة والثلاثين من عمرها.

كان هناك عائلة، مهما سافرت ورجعت تجدها في انتظارها، تعود دائما إلى «سيدني»، ثم تغادر من جديد ثم تعود، والدها يستقبلها مع ترنيم اسمها «دو.. را...»، زوجة أبيها «ماما وفاء» تجهز لها أقراص الكبة المقلية، والتبولة واللحمة بالعجين، وحين تحتضنها وتضع رأسها على كتفها العريض مثل وسادة محشوة بالحنان، تحس أن العالم القاسي الذي شاهدته خلال سفرها قد تلاشى تماما، كما لو أن لا وجود له طالما هناك مثل هذه المحبة على وجه الارض. كان هناك آزاد أيضا، الرجل الوحيد الذي أحبته، وافترقت عنه.

لكن الحياة التي بدت لها مستقرة تغيرت في غمضة عين، والدها رحل منذ عامين بعد صراع قاس مع سرطان العظام، آزاد افترقت

عنه، رغم قصة حب ظلت بين كر وفر ما يزيد عن عشرة أعـــوام، وهي لم تعد تفكر في العودة إلى «سيدني»، فقد انفرط عقد حياتهـــا هناك وبات عليها من الضرورة أن تبتعد كثيرا عن محور ذكرياتهـــا. أما أخواها مايا ورشيد سوف يأتيان هذا الصيف إلى لبنـــان فقـــط لأنهما يفكران في بيع بيت الضيعة، والعودة إلى أستراليا لكي يبـــدأ كل منهما مشروعه الخاص، هي لا ترغب في البيع، ولا في الصدام معهما، لكنها لا تعرف ماذا ستفعل لو أصرا على قرارهما.

لمحت دورا يافطة مكتوب عليها «قهوة بيتنا»، خطر في بالها أن تتناول قهوتها وتأكل منقوشة من الجبن الأبيض حين شـــاهدت إيمان تقف عند باب محلها، بدت لها أنيقة وهي ترتدي ثوباً مـــن القطن يطغى عليه اللون الأخضر ورسوم من الزهور البيضاء، يضيق عند الصدر بمجموعة من الأزرار ذات الإطار الذهبـــي ثم يتســـع ويطول ليغطي الركبتين، وكانت تنتعل حذاءً بلون بني فاتح يشبه حذاء راقصات الباليه، وتلم شعرها الأسود في مشبك صغير خلف رأسها. تبادلا تحية الصباح ورحبت إيمان بلطف شديد بقدوم دورا إلى محلها للمرة الأولى.

في الداخل شاهدت دورا شاباً عشرينياً يعمل بـــالقرب مـــن الفرن، أعطته إيمان بعض التعليمات، وهي تطلب منه قهوة خاليـــة من السكر ومنقوشة جبنة ساخنة لدورا.

سرعان ما بدأ المكان يزدحم بالشبان والفتيات الـــذاهبين إلى أعمالهم والذين يعرفون طريقهم جيداً في المقهى الصغير، يفتحـــون الثلاجة لأخذ الماء أو العصير، يدفعون المال لإيمان، ثم يتجهون نحو الشاب الواقف قرب الفرن ليحددوا نوع المنقوشة التي يريـــدونها.

تابعت دورا الحركة الصباحية، وهي تأكل بشهية، ثم لمحت يوسف الصغير يدخل إلى المحل يلقي التحية قائلاً:

- صباح الخير إيمان.

أشارت له دورا من بعيد وهي تنادي عليه «يويو» الاسم الذي اعتادت مناداته به حين كان طفلا، كانت في السابعة عشر من عمرها يوم شاهدت يوسف أول مرة، طفلاً رضيعاً لم يتجاوز عامه الأول، يتنقل بين ذراعي أمه هيلدا وجدته لأبيه التي تغمرها السعادة بحمل حفيدها. لم تنس دورا هذا المشهد، فقد جمعها مع يوسف إحساس حاد بالتعاطف، تدرك أسبابه جيداً، هذا الإحساس الذي تشكل منذ فقد يوسف أبويه، وصار ينمو مع كل عام تأتي فيه دورا إلى بيروت وتشاهد الطفل الصغير وهو يكبر.

تهلل يوسف لرؤيتها، وسارع بالجلوس على الكرسي الآخر بجوارها. بادرته بالسؤال:

- إلى أين أنت ذاهب هذا الصباح؟

حك الشاب الأشقر شعره في حركة كرتونية قائلا:

- من المفترض أن أذهب إلى الجامعة لأسأل عن اجراءات التسجيل في كلية الطب، وأنا لا أريد الذهاب كما تعلمين، لكن جدي مصمم.

تمتمت دورا:

- نعم أعلم، لكن ماذا تريد أنت أن تفعل، إن كنت لا ترغب بدراسة الطب؟

- لا أرغب بفعل شيء لمدة عام كامل، بعدها أقرر إن كنت أريد دراسة الطب أم لا.

- هذا يعني ضياع عام كامل هباء، كما يعني أنك لم تحسم أمرك برفض الطب؟
- ليس تماماً، تعجبني فكرة أن أكون طبيباً، وفي نفس الوقت تغريني فكرة الموسيقى، أن أصبح عازفاً، وأسافر إلى أرجاء الدنيا. أريد أن أسافر يا دورا. لا أريد البقاء هنا، وهو يريد أن يستبقيني، يظن أنه يعرف مصلحتي أكثر مني، وأن علي أن أدرس الطب مثله، وأن أرث بيته وعيادته، وأنغرس كما فعل هو في بيروت، لكن هذه المدينة لا تغريني بالبقاء، ليس فيها ما يرضي طموحي.
- لكنك قلت إنك لا تعرف تحديداً ما الذي تريد فعله، وأنك لا ترفض مطلقاً دراسة الطب بل تعجبك الفكرة، أظن أن جدك يرى علاقتك مع الموسيقى مجرد هواية ربما تتخلى عنها بعد وقت قليل، حينها ستكون أهدرت عاماً من حياتك. عليك أن تنظر في داخلك أكثر وتحسم أمرك.

قالت دورا جملتها الأخيرة، وهي تلملم أغراضها وتستعد لمغادرة المكان، رافقها يوسف إلى الخارج، سارا معاً، رغم طول قامته التي توازي قامتها بدا لها حائرا مثل صبي في الخامسة تاه عن أمه وسط الزحام، فكرت دورا أنها لو كانت تزوجت وأنجبت سيكون لديها ابن أو ابنة في مثل عمره أو أصغر منه بقليل، غمرها إحساس كبير بالعطف نحوه، أما يوسف فكان يجد في حواراته مع دورا براحاً يمنحه الأمل وهي تحكي عن عملها ورحلاتها، وتجاربها يتمنى أن يكون مثلها، وأن يغادر هذا الحي الصغير نحو العالم الواسع. قالت له وهي تبتعد:

- يويو. مازال هناك وقت لتصل إلى قرار وفي النهاية افعل ما تحب، جدك سيتفهم الأمر مهما كان اختيارك، أنـــا على ثقة من ذلك، لكنه خائف عليك، ويحـــس أنـــك متردد، ربما لذلك يدفعك دفعا نحو الطب، ليساعدك على حسم أمرك.
- في كل الأحوال سوف أذهب الآن إلى الجامعة.

6

تبدو ذكريات يوسف الصغير حتى سن السادسة من عمره غامضة جدا بالنسبة له، يظن أن حياته مع جده الطبيب هي التي جعلته ولدا منطوياً، خجولاً، وأن جده الذي تجاوز السبعين من عمره يحاصر حياته بنصائح لا تنتهي. لكن أجمل ما في الحياة مع هذا الجد هو إحساسه بالأمان، وبأن الرجل العجوز لن يتخلى عنه أبداً. تنتاب يوسف رعشة وغصة في حلقه، حين يتخيل رحيل جده، حينها سيصبح وحيداً تماماً في هذا العالم.

مع سنوات المراهقة تغيَّر يوسف؛ أطال شعره وطوّق عنقه ومعصمه بالخرز، ارتدى بناطيل من الجينز تكاد أن تسقط عن وسطه، صبغ أطراف شعره باللون البنفسجي، وأوشك أن يثقب أذنه ليضع بها قرطا، لولا تردده في اللحظة الاخيرة بأن الثقب لن يزول أبدا.

يظن يوسف أنه لو كان أبوه أو أمه على قيد الحياة، لكان أحدهما فهمه أكثر من جده. وسيدافع عنه ويشجعه على الانحياز لأهدافه، لكن الجد يريده أن يكون امتداداً له، بعد أن فشل في فعل هذا مع والده أسامة الذي اختار أيضا مهنة بعيدة عن الطب.

كانت الكاميرا بين يدي أسامة تتحول إلى آلة سحرية، درس الفنون الجميلة ثم عمل مصوراً في وكالة الأنباء الألمانية، وخلال عمله التقى مع «هيلدا» التي تعمل مراسلة صحافية. ويبدو أن

رغبتهما في البقاء معا منذ لحظة لقائهما أول مرة انعكست على نهايتهما المأساوية؛ فقتلا أيضاً بالقذيفة ذاتها في أفغانستان.

لم تمنع ولادة يوسف، هيلدا من السفر، ومن ممارسة مهنتها. بعد أن وضعته بثلاثة أشهر، أصرت على العودة إلى عملها، تركته في البداية مع والديها العجوزين في برلين، تحت رعاية مربية شابة جلبتها لمساعدتهما على الاعتناء به.

في الرابعة من عمره، فقد يوسف والديه، لكنه لم يحس بالأمر، ربما لأنه لم يكن يراهما كثيراً، أو ربما تبدو التفاصيل التي تتعلق بتلك السنوات منسية تماماً، أو غائمة في ضباب الذاكرة. لا يوجد من يقص عليه أي حكايات دقيقة عن تلك المرحلة، فقد أصيبت جدته لأمه بالزهايمر، وكان على جده الاعتناء بها؛ لذا سافر بيوسف إلى بيروت.

وهو في السادسة من عمره، صار تحت رعاية جده لأبيه، تلاشت ذكرياته مع جديه الألمانيين ومربيته في برلين، لم يكن يوسف يتكلم العربية عند رجوعه إلى لبنان، لذا كان الأولاد في الشارع والمدرسة يلقبونه: «الصبي الألماني»، هذا الاسم ظل يرافقه لسنوات، بسبب ملامحه الأوروبية، ولثغته في بعض الحروف، وإحساسه بالاغتراب الذي انعكس في عينيه المحملتين بالأسئلة والوحشة.

مازال يوسف يذكر جيداً ذاك اليوم الذي عاد فيه إلى بيروت برفقة جده دانييل، الرجل الطويل الأشيب، حليق الذقن. جلس بجانبه في سيارة التاكسي التي أقلتهما من المطار عبر شوارع صغيرة مقارنة بشوارع برلين. جده أمسك بيده وهما يقفان أمام بوابة

حديدية منخفضة، خلفها حديقة يتوسطها ممشى يؤدي إلى بـــاب البيت الرئيسي. كان جده الطبيب يقف بانتظارهما، باشاً ومرحباً، لم تتغير ملامحه كثيرا عن ذاك الزمان.

في الداخل قال دانييل موجهاً حديثه للطبيب:

- لقد أحضرت لك جو، لن أتمكن من رعايته بعد مـــرض زوجتي، لا أعرف إلى أي حد من الممكـــن أن تســـوء حالتها، أعرف أنك وزوجتك من الممكـــن أن تـــوفرا لحفيدي حياة كريمة.

تمتم الطبيب بعبارات مواسية ومطمئنة في آن، كانت زوجته تقف إلى جانبه، بدت متأثرة أيضا لكنها لم تتمكن من كتم فرحتها بعودة حفيدها الذي سيعوضها حضوره عن فقد والده. ســـارعت إلى احتضانه، وإغرائه بتقديم أنواع مختلفة من الشوكولا، الصبـــي الصغير كان يبدو عليه الخوف، ظل جالساً في مكانه يمسك بذراع جده الألماني.

بعد أن استفاض دانييل في شرح معاناته، أحـــس الطبيـــب يوسف بأسف شديد، وحزن حقيقي نحو الرجل الغريب، فهمـــا يشتركان في مُصاب واحد، كلاهما فقد فلذة كبده، لكن دانييـــل ابتُلي بمرض زوجته أيضا، وها هو يجد نفسه مضطراً للتخلي عـــن حفيده.

لم يمنع إحساس الطبيب بالحزن والارتباك من المفاجأة، عـــن الترحيب بضيفه القادم من بلد بارد، يدل عليه ثقل معطفه الشتوي والشال الصوفي حول عنقه. كان شهر نيسان، والجو ربيعـــي في بيروت، مما شجعه على دعوته للإقامة في ضيافتهما ليصـــطحبه في

جولات قصيرة للتعرف إلى لبنان. شدد على دعوة الجد الألماني مع وصف حال الطفل الصغير الذي يجب أن يعتاد إقامته الجديـــدة في حضور دانييل، بل قبل مغادرته وبقاء يوسف وحده معهما.

وافق دانييل، وظل برفقتهما خمسة أيام لأنه لا يستطيع التغيب مدة طويلة عن زوجته التي تركها في المستشفى. اصطحبه الطبيب إلى شاطئ البحر، وإلى الجبل، ترافق الجدان والطفل في جـــولات للأماكن الشهيرة في لبنان، ولم يخمن يوسف الصغير أن الفـــراق قادم، وأن مرحلة جديدة من حياته سوف تبدأ.

يوم سفر دانييل، احتضن الرجلان بعضهما بعضاً، مثل صديقين حميمين أمضيا شطراً كبيراً من عمرهما سوياً. كلاهما أحس نحو الآخر أن ثمة تقاطعات قدرية كثيرة جمعتهما في الصميم، مصائر لا ذنب لهما فيها وضعت كلاً منهما في قلب دائرة الفقد والالتزام.

يوسف الصغير لم يدرك حينها أن الرجلين الطيبين تعاونا معا لصياغة قرارات بشأن حياته، هذه الحياة التي كلما أكمل بها عاماً، ازداد اقتناعا أنها حياة غير طبيعية أبدا، منذ اللحظة الأولى التي كان فيها جنينا في بطن أمه هيلدا.

أخبره دانييل بهدوء، وبعبارات قليلة تتناسب مـــع طفـــل في السادسة من عمره، أنه سيبقى في بيروت مع جديه. لم يكن العناق والاحتضان والدلال اليومي جزءاً من تفاصيل حيـــاة الطفـــل في برلين، فقد اعتاد على أن تتولى المربية الاعتناء به، وأن يلتقي مـــع جديه أثناء وجبات الطعام، ويتبادل معهما عبارات قليلة. هذه المرة احتضنه جده للمرة الأخيرة، قبل أن يجتاز عتبة الحديقة ويغادر في سيارة تاكسي إلى المطار.

تجاوز يوسف عتبة الانتقال المكاني بسرعة بسبب تلقيه نوعاً مختلفاً من الحب، فيه الكثير من الاهتمام والدلال، قبلات وعناق وأحضان من جديه، حتى أنه كان ينام بجانبهما في كثير من ليالي الشتاء الباردة، وفي ليال أخرى يطلب من جدته أن تظل معه في السرير حتى يغفو، تحكي له قصة، أو تغني له أغنية مدركة أنه لا يفهمها.

ورغم هذا، ظل يعتبر الأعوام الخمسة الأولى بعد عودته من برلين إلى بيروت، من أكثر سنوات حياته صعوبة، كل شيء كان غريباً بالنسبة لطفل يعاود اكتشاف العالم من حوله، عبر أناس جدد، ولغة غريبة لم يألفها. في المدرسة كان يتعلم الألمانية والإنجليزية وقليلاً من العربية، فقد حرص جده يوسف على استمرار صلته مع بلد أمه، عبر دراسته لغتها، وتجديده المستمر لجواز سفره، رغم أنه لم يسافر مرة أخرى إلى ألمانيا، لأن جده لأمه دانييل أصبح هو أيضاً معتل الصحة، وربما يكون ميتاً، فقد انقطعت أخباره منذ عدة أعوام؛ لذا لا يملك يوسف الصغير إلا عنوان بيت جده في برلين، وهو يحلم أن يذهب إلى هناك، وأن يبحث عن ماضي أمه هيلدا الذي يحيره.

لم تحل يفاعة سنه، وفورة شبابه، وانشغاله بالموسيقى دون وجود بؤرة غامضة في داخله نهمة للمعرفة والاكتشاف، لذا أقبل يوسف الصغير على دراسته بجدٍ، وبرز في اللغة الألمانية وفي العلوم. كانت أستاذته في الألمانية تصوب أخطاءه البسيطة في المقالات الأدبية التي يكتبها وينشرها في مدونته، افتتن يوسف بالقراءة بلغة أمه، وكان يحس أنه كلما أتقن هذه اللغة كلما تمكن في يوم ما من

معرفة هيلدا أكثر. معرفة ما أحبته، وما كرهته، ما دفعها لتلك الاختيارات في حياتها. إنها الأسئلة التي ظلت تحيره و لم يجد لها إجابات واضحة. أسئلة العلاقة مع أمه، الغائبة عن العالم، الحاضرة في داخله.

بعد مرور عام على عودته إلى بيروت، جاءت دورا مع أسرتها إلى لبنان لقضاء أجازة الصيف. حكت له أنها شاهدته وهو طفل صغير بين ذراعي أمه، كانت دورا تعرف قليلا من الألمانية، فتخاطبه بها، كانت حينها في الخامسة والعشرين، وكان في السابعة من عمره، تمسكه من يده وتأخذه إلى مدينة الألعاب، تشتري له الآيس كريم وتصعد معه في الدولاب العالي حيث يشاهدان بحر بيروت يمتد في الأسفل. كان يحب الصيف لأن دورا تأتي خلال أشهره، ولأنه يمضي برفقتها وقتاً ممتعاً وحنوناً. والآن دورا بالنسبة له في تنقلاتها وأسفارها، في مغادرتها وعودتها تستدعي في ذهنه صورة أمه هيلدا التي لم تعرف حياتها الاستقرار في مكان واحد.

7

لما صعدت دورا إلى سيارة السرفيس، كانت فيروز تغني «رجعت الشتوية» رغم انتصاف شهر يوليو، لذا علق السائق ساخرا: «شو هالحكي أغنية عن الشتا في عز الصيف» ولأنها لم ترد، بل ظلت تنظر الى الخارج، حرك السائق المرآة موجها كلامه لها: «مش هيك يا أستاذة»، أومأت برأسها إيجاباً مع ظل ابتسامة، مال هو بسيارته لتصعد امرأة خمسينية تحمل بيدها عدة أكياس، جلست المرأة إلى جانب السائق وسرعان ما اشتبكا في حوار متشعب، عن أزمة الكهرباء، والقمامة، والوضع الاقتصادي السيئ، وخلافات الحكومة، ثم تحدثا عن الجريمة التي وقعت في أحد أحياء بيروت، وتبادلا ما شاع من أقاويل حول القتيلة.

لاحظت دورا أن السائق غيَّر اتجاه سيره، قاطعت حوارهما لتسأله:

- لكنك لم تذهب في طريق الأوتوستراد، أخبرتك أني أريد الذهاب إلى هناك.
- خمس دقائق يا عمو، نوصلها، ونطلع أوتوستراد.

أحست دورا بالغضب، لأنها تريد الوصول إلى الموعد بدقة، لحضور الاجتماع الأسبوعي في مقر عملها، حيث يتم توزيع المهام على مدار الأسبوع. لكنها أصبحت معتادة على تصرفات سائقي التاكسي في بيروت، تحليلاتهم السياسية الدولية والمحلية، انعطافهم

بالسير نحو طرق فرعية بحجة الفرار من الزحام، الحديث عن ضيق الحال وأن هذه المهنة ليست مهنتهم، وإذا كان السائق قد تجاوز الستين من عمره فسوف يُسهب في الحديث عن أيام العز في لبنان قبل الحروب، ثم ذكريات مرارات الحرب الأهلية التي تنتهي غالباً بجملة «الله لا يعيدها».

حاولت أن تشغل نفسها في تقليب الملفات التي بحوذتها عن اللاجئين السوريين في لبنان، سجلت فيها بعض المعلومات عنهم، ظروفهم المعيشية وضعهم الاجتماعي والصحي، والنفسي، احتياجاتهم الملحة. كانت أكثر الحالات بؤساً التي شاهدتها في مجموعة من العائلات سكنوا في تجمعات بالقرب من شاطئ البحر في منطقة «الجناح» هناك حيث تجاورت خيامهم مع بيوت صفيحية وأخرى إسمنتية لكنها لا تصلح للسكن الآدمي. انشغلت في تقليب الملفات، وتوقفت لتعاود قراءة ملف «فرح» التي وعدتها بالمساعدة.

8

«متى ستنتهي هذه الحرب اللعينة! هل سأعود يوما إلى بلدي، وإن رجعت لمن سأرجع، لم يعد هناك أحد.»

غادرت فرح خيمتها، تنتظر دورها للدخول إلى الحمـــام، لا يوجد سوى حمامين وسط بيوت الصفيح، واحد للرجال، وآخـــر للنساء.

في الصباح غالباً ما تنتظر دورها لأكثر من عشر دقائق، وفي حال كانت جارتها منى تغسل ثياب أطفالها التي تبللت ليلاً فـــإن الانتظار سيطول. في كثير من المرات عادت فـــرح إلى الخيمـــة، ونادت على إحدى الفتيات الصغيرات وأوقفتها حارســـة علـــى مدخل الخيمة، حتى تتمكن من التغوط في علبة سمن قديمة احتفظت بها لقضاء الحاجة، ثم يكون عليها أن تتدبر أمرها لرمي الفضلات في حفرة وردمها من دون أن يلاحظها أحد.

لكن فرح كانت مصرة رغم كل هذه المأساوية ألا تستسلم، كانت تحمل كل يوم سبورتها السوداء التي أحضـــرتها لهـــا دورا، وتدور على الأهالي لتجمع معظـــم الفتيـــات والأولاد الصـــغار لتعليمهم القراءة والكتابة. مضى على وجودها هنا سبعة أشهر، ولم تجد ما تُنقذ به شغفها للتعلم سوى تدريس هؤلاء الأطفال.

في العام الذي كان من المفترض فيه أن تبدأ دراستها الجامعية، انقلب عالمها وتحول من النقيض إلى النقيض. انتهى زمن التلميـــذة

البريئة، لقد ماتت البنت التي كانتها، ذهبت مع الراحلين في حلب، وحل مكانها فتاة شرسة عليها أن تدافع عن نفسها بكافة السبل كي تعيش؛ أن تضع سكيناً تحت وسادتها، وتنام داخل الخيمة بكامل ثيابها لأنها خائفة من مهاجمة أي وغد، أن تحمل الجرو الصغير من الشارع وتضعه معها داخل الخيمة، كي ينبح كلما اقترب أحد منها.

لا تذكر فرح تماماً كيف وصلت إلى هنا، لقد كبرت مئات الأعوام منذ ذاك اليوم، لا يمكن أن تكون في الثامنة عشر من عمرها فقط، وأن عامًا واحداً مر على تلك اللحظة التي عادت فيها إلى البيت فلم تجده، وجدت مكانه ركامًا، أبوها وأمها وأختها لم يتحولوا إلى جثث، بل إلى أشلاء لا يمكن جمعها. شاهدت يد أمها مقطوعة وأساورها الذهبية غارقة في الدماء، ضفيرة شعر أختها كرمى ظهرت بين حطام جدارين، وحين حاولت أن تشد الضفيرة وجدتها عالقة بقطعة من جلدة الرأس. أما الجزء الذي ظهر من جثة أبيها فقد كان متفحما تماما، في لحظة واحدة تتحول الحياة كلها إلى مجزرة، كل الماضي والحاضر والمستقبل الموهوم لا يعدو أن يكون تاريخا فاصلا شاهدا على خراب أبدي. صرخت عويلا، ندبت وبكت وشدت شعرها، لطمت وجهها ثم سارعت بالهرب، رائحة البارود تملأ رئتيها ومئات الحكايا المرعبة تدور في رأسها، ظلت تركض وتركض إلى أن سقطت أرضا.

لا تذكر كم ظلت غائبة عن الحياة بعد هذا الحدث. رحلت بصحبة جيران لهم، وصلوا إلى دمشق ومنها عبروا الحدود إلى لبنان، حتى وصولهم هنا إلى هذا المخيم المرتجل على أطراف مدينة

بيروت، مجموعة بيوت من صفائح الزنك قريبة من شاطىء البحر في منطقة فقيرة جدا، ثم شُيدت خيام للمهاجرين بجانب بيـــوت الصفيح. طوال أشهر طويلة كانت فرح عاجزة عن النطق بكلمة، حتى أتت دورا إلى المخيم، وبدأت معها رحلة مختلفة.

ذات يوم عادت فرح إلى الخيمة وجدت الجرو الصغير ميتـــا عند باب خيمتها، وبعد مرور شهر على غيـــاب الفتـــاة الشـــابة صابرين اختُطِف أحد توأمي منى أيضًا. طوال الليل يسمع المخـــيم نواح منى وندبها على ابنها المخطوف، تتماسك نهاراً، لكنها تنهار في الليل وهي تهدهد توأمه وتنقله من كتف إلى كتـــف، لم تعـــد تتركه مطلقا حتى حين تدخل الحمام تحمله معها، زوجها مفيد لم يكن أقل بؤساً منها على خسارة ابنه، حتى إبلاغه للسلطات الأمنية لم يأت بأي نتيجة تذكر، أخذوا أقواله، وقاموا بالتحقيق مع بعض الجيران، ثم انتهى الأمر.

سرى الكلام داخل المخيم بغموض عن أبـــي لؤي ورجالـــه الذي يأتي إلى المخيم بحجة زيارة إحدى العائلات من أقربائه، قدم أبو لؤي نفسه بأنه رجل أعمال سوري هارب من الحرب مثلـــهم لكنه يمتلك علاقات نافذة تُسهل طرح الوعود للشباب والفتيـــات بمساعدتهم على إيجاد فرص للعمل، أو بتمويل بعضهم للقيام بتجارة بسيطة داخل المخيم أو في الجوار، لكن في غضون أشـــهر قليلـــة تسربت شائعات عن صلات مشبوهة له، أقاويل عـــن عصـــابات خطف الأطفال لبيع أعضائهم، وعن تســـهيل الـــدعارة للنســـاء القادمات من سوريا. أحد الشباب في المخيم قال إنه شاهد عـــبر اليوتيوب، فيديو مسجل لأحد الأشخاص يحكي فيه عن أبو لؤي

السوري، وما يفعله في بارات المعاملتين وجونيه، لكن لم يجرؤ أحد على منعه من القدوم للمخيم.

لم تسمع فرح ما يتردد من أقاويل وشائعات، إذ كانت تتجنب الجلوس لوقت طويل مع أي أحد من رجال أو نساء المخيم، كان لديها إحساس من الخوف وعدم الأمان، غير أن لقاءها مع دورا غير عدة أمور في حياتها.

في أحد أيام الشتاء القاسية جاءت دورا لتوزيع المعونات على الأهالي، كانت تأتي برفقة شابين، يقومون جميعا بالطواف على الخيم لتسجيل أسماء العائلات، وعدد أفرادها، ثم يوزعون كل الكراتين الموجودة في السيارة التي فيها بطاطين، معلبات، حليب مجفف، حفاضات للأطفال، سكر، زيت، شمع، طحين، شاي، تمر، وأشياء أخرى.

لم تكن فرح ضمن الذين سارعوا لأخذ حصتهم من المعونة، بل ظلت جالسة عند طرف خيمتها، دورا التي كانت تراقبها وسط انهماكها في تسجيل الأسماء لفت انتباهها البنت التي تقف بعيداً، تضع حجاباً أبيض، عيناها الخضراوان تلمعان من بعيد رغم ما فيهما من حزن، وقبل أن تنتهي كل الأغراض التي في حوزتها، مشت دورا نحو تلك الفتاة وسألتها عن اسمها، واستغربت أنها لم تأخذ أي شيء. اكتفت فرح بأن هزت كتفيها بلامبالاة، ولم تنطق بأي حرف.

تبرعت إحدى نساء المخيم، وحكت لدورا حكاية فرح من لحظة اكتشافها موت أهلها، وحتى قدومها إلى المخيم. أخبرتها أنها لم تتكلم منذ تلك اللحظة، وتظل جالسة في خيمتها وحيدة، يحضرون لها الطعام لكنها بالكاد تقربه.

سجلت دورا اسم فرح وكتبت بجانبه عبارة (حالة خاصة).

في تلك الليلة، ظلت صورة فرح تلـــوح أمـــام دورا، فتـــاة بيضاء نحيلة مصابة بالبكم، تجلس عند طرف خيمتها، وتطل مـــن عينيها الخضراوين الواسعتين كل آلام الأرض. فكرت دورا أنهـــا كانت في مثل عمرها حين بدأت في أستراليا العمل ضمن مؤسسة مدنية لمساعدة منكوبـــي الحروب والكوارث، وضحايا العنـــف الأسري.

خلال هذه الأعوام الطويله شاهدت دورا قصصا مأساوية لا تذكرها كلها، وساعدت أيضا في تغيير حياة كثير مـــن البشـــر، أنقذت مراهقين من الضياع، وساعدت أمهات على تربية أبنائهن، استمعت إلى أحلام كبيرة لصبيان وبنات تحت خط الفقر، كشفت لهم عن دروب تمكنهم من الوصول إلى أول الطريق. دورا نفســـها لا تذكر كل ما مر بها من أحداث وأشخاص تحولـــت حيـــاتهم للأفضل، في مقابل أضعاف مضاعفة غيرهـــم لم تـــتمكن مـــن مساعدتهم؛ تذكرت دورا بأسى فتاة في الخامسة عشر من عمرهـــا كانت تهرب من المدرسة مع صديقتها وتذهبان إلى فـــيلا بعيـــدة حيث تتعاطيان المخدرات مع مجموعة من الشبان، ولما حاولـــت اللحاق بها أكثر من مرة وإعادتها إلى البيت خدشـــتها الفتـــاة في رقبتها، وحاولت ضربها. أطياف حكايات وحكايات تمر في ذهنها لا تجد لها تفسيرات منطقية تُبرر ما حدث.

فرح أيضاً لم تكن تريد المساعدة، كانت تجلس عند طـــرف الخيمة تكتفي بالمراقبة، وكأنها لا تكترث بالحصول على ما يقيهـــا من البرد، وما يكفيها من الطعام. فرح كما كتبـــت عنـــها دورا

كانت «حالة خاصة»، لم تكن تعرف طريقًا واضحًا لها، لكنـــها تجاوزت قليلا تلك المرحلة القاتمة مع جلسات الإرشـــاد النفســـي ومحاولة البحث عن شعاع ضئيل من الأمل.

9

مازلتُ أذكر جيدا سفرنا أنا وجمانة إلى القاهرة، للمشـــاركة في حلقات الذكر على جبل المقطم، كانت جمانة تحب حضـــور الموالد، وسماع الأناشيد الدينية، والرقص مع الدراويش، وتوزيـــعٍ أرغفة الخبز ووجبات الطعام على الفقراء، وهي ترتـــدي عبـــاءةً سوداء طويلة، وتغطي شعرها بغطاء رأس أبيض شفاف.

أستيقظ من النوم مفزوعا وكأني كنـــت أشـــاهد شـــريطاً سينمائياً طويلاً: «مدد يا حسين مدد»، كأني مازلتُ أسمع أصواتهم يهتفون؛ يتكرر الحُلم، أشاهد الإمام الحسين في منامي يرتدي عباءة بيضاء ويطوف حول مقامه، يمشي وراءه جماعة مـــن المجاذيـــب والشحاذين يهتفون «مدد يا حسين»، وأنا أسير إلى جانب الإمام قرب كتفه الأيسر، يلتفت إلي بغتة، أبدو ضئيلاً، لا ينظر نحـــوي مباشرة تبدو نظرته أعلى من قامتي وهو يقول لي: «بابك موصـــد عن الدعاء وقلبك خاو، وروحك عليلة.»

لم أكن مسلماً متديناً، بالكاد أعرف حكاية الإمام الحسين، لم يخبرني أحد بقصته وأنا طفل، لكن لا يمكنني تخمين سبب تكـــرار رؤيته في المنام. لكن جمانة كانت تحب زيارة مقامه كلما كنـــا في القاهرة؛ هي مسلمة من جهة الأب الذي لم تنشأ في كنفـــه، ولم تعرف الكثير عن التاريخ الديني إلا من خلال صديقتها بتول الـــتي تعرفت إليها في باريس، ثم عادت والتقت بها في بيروت.

كانت بتول مسلمة شيعية ملتزمة تدرس في السوربون وتفتخر بإقامة الطقوس الدينية كاملة في قلب باريس، تبتهج بتول بدورها كداعية أكثر من كونها تُعد أطروحة الدكتوراه لتصبح أستاذة جامعية. في أيام عاشوراء ترتدي السواد لعشرة أيام، تطبخ القمح واللحم وتوزعه في الجامع، وفي بيتها تقيم مجالس ذكرٍ تدعو إليها الأصدقاء المقربين، يجلسون للإصغاء لمقرئة عراقية شابة تصبغ شعرها بالأشقر البلاتيني. تصف لي جمانة عذوبة صوت المقرئة، وجمالها بعد أن تنزع الحجاب عقب مغادرة الشبان، لطالما حكت لي ما كان يحدث في بيت بتول الصغير الذي بالكاد يتسع لاستقبال ستة أشخاص بينهم شابان أحدهما مسلم هندي تحاول بتول إقناعه بالمذهب الشيعي، والآخر صيني شبه ملحد يريد اكتشاف السلام في الإسلام، وأيضا تطمح الداعية إلى إشهار إسلامه على يديها.

أعادني منام هذه الليلة إلى كل الذكريات التي لم تغب، ذكريات حنونة قاسية غالية، مؤلمة، سخية في لحظات الفرح حد الذهول، وحاجبة للحظات الحزن حد الوهم بغيابه.

***

أحيانا يقوم الإنسان بأفعال لا يدرك أثرها في اللحظة الآنية، بينما تلك الومضة الزمنية الفارقة التي اتخذ فيها قراراً بالمضي في أمر ما، تترك انعكاسها على حياته كلها.

حين التقيتُ جمانة في باحة جامعة السوربون كان الموقف مضحكاً لم يُنبيء عما ستكون عليه حكايتنا. فتاة طويلة شقراء بديعة القوام، بملامح أخاذة، تمشي بحذاء رفيع، كُسر كعبه الأيسر،

ما إن وقعت عيناي عليها حتى ضحكت ضحكة طفولية وأنا أراها تميل في محاولة منها للسير بكعب حذاء مكسور، ضحكت هي أيضا، وأشارت لي نحو ساقها بأنها لن تستطيع السير أكثر، تبادلنا بعض الكلمات باللغة العربية، ربما خمنت أني عربي من ملامحي الشرقية، طلبت مني مساعدتها، استندت إليّ حتى خرجنا خارج حدود الجامعة، في الشارع، خلعت جمانة فردتي حذائها، وضعته في حقيبتها ومشت حافية.

لم تكن المرة الأولى التي تمشي فيها حافية في مكان عام، حكت لي أنها مشت على الجمر، خلال إحدى جلسات التأمل مع معلمها الروحي، يومها كانوا يجلسون في دير قديم، يتحلقون حول دائرة كبيرة، المعلم أشعل الجمر وتركه ممتدا على الأرض على شكل خط طويل. قامت جمانة من وسط الجموع وسارت على الجمر، أخبرتني أنها لم تحس بلسع النيران على قدميها، وأنها فعلت ذلك بيقين قوي بأن النار لن تؤذيها، وأرادت أن تختبر صدق إحساسها.

كيف يمكن لذاك اللقاء القصير أن يكشف لي أن ما ستمضي عليه حكايتنا أكبر مني ومن قدرتي على استيعاب هذا الحب، لم أحبها من أول مرة، لكني فُتنت بها منذ اللحظة الأولى وفي كل يوم لي معها كنت أتفاجأ بحكاية جديدة، حكايات وحكايات، كانت تكبرني بخمسة أعوام، لكن ليست هنا تكمن المشكلة لأن خبراتها في الحياة تتعالى بشموخ أمام عمرها، الأشخاص الذين التقت بهم، تنقلاتها الكثيرة، تجاربها، قصصها كما لو أني معها أدخل مدينة العجائب، هي نفسها لم تكن تعرف ماذا تريد من حياتها، كانت

تفعل كل شيء وأي شيء كي تصل إلى أي غاية تريدها، أو يخيل إليها أنها غاية. لكن كل هذا يتبدى وهمه بعد زمن قليل. كانت ترسم وترقص وتغني، تدرس لغات، وتهتم بنحت تماثيل من الطين. تقطع أشواطاً في اهتمامات كثيرة، سرعان ما يخبو شغفها بها. ثم خلال حياتنا معا أيقنت أنها لا تريد أن تفعل شيئا سوى أن تظل لاهية عن الحياة ككل.

الرجال الذين عرفتهم كُثر حتى أنني لا أذكرهم جميعاً. في لياليا معا حكت لي عن بعضهم: الضابط، الرسام، المحامي، رجل الثلج، صاحب الشقة، الوزير، الممثل، تاجر النفط، وغيرهم. رفضت أن تحكي عنهم بأسمائهم الحقيقية، كانت تعطي لقبا لكل منهم فيصير لغزاً بيننا، لا أعرف ربما كذبت علي وهم يعرفون أسماءهم المستعارة، لا أدري حقا.. لكن من يمكنه أن يعرف الحقيقة؟

هل أنا أكثر من أحببتها بينهم جميعا؟

هل أحبوها؟

هل أحبها أحدهم، أم أن جميعهم رأوا فيها جمالا يمشي على الأرض؟ أردت حمايتها منهم جميعا، لكني لم أستطع.

الآن، كل هؤلاء الرجال الذين حكت عنهم يبدون غير حقيقيين، مجرد أشباح، إذ كيف لي أن أعرف من هم! كيف لي معرفة هوياتهم الحقيقية، الآن بعد أن رحلت ليس هناك من سبيل لمعرفة أسماء من كانوا عشاقها، وهل كانوا عشاقها فعلا، أم أنها كانت تلهو بكل تلك القصص، لأصير أنا مجرد «دون كيشوت» أقاتل طواحين الهواء من أجلها.

وهي.. من هي؟ أتكون أوروبا التي عشقها زيوس وخطفها بعيداً ليصطفيها له وحده!

في لحظات صفائها كانت تحكي عن حيوات ماضية عاشتها من قبل، وأن روحها المعذبة لم تنضج في أي حياة، لذا كانت ترجع إلى الأرض بجسد جديد. تحكي عن البلدان التي عاشت بها، واللغات التي عرفتها، والأماكن التي مازالت تذكرها؛ ثم تؤكد لي أن حبنا ليس وليد هذه الحياة، وأنه ممتد من عصور سحيقة، وحين أنظر إليها مدهوشا، تحدق في عيني مباشرة وتسألني: «هل تموت الروح؟»

لم أكن أعرف إن كانت تسألني لتجد إجابة أم لأنها تود أن تحكي لي ما تراه. أمط شفتي وأهز كتفي إشارة لجهلي، لكنها لا تتركني بل تكرر سؤالها بنبرة أكثر قوة: «هل الروح تموت؟»

أقول للخلاص من هذا المأزق: «ربما». في تلك اللحظات يبدو في عينيها انكسار عجيب قبل أن تقول: «نعم ربما... لا نستطيع القول سوى ربما، لكن اذا كانت الروح تموت فأنا لم أعرفك إلا في عمر واحد، ومنذ زمن قليل. وإن كانت لا تموت، فإن كل ما حكيته لك حقيقي جدا، أحس به ولا أملك عليه دليلا، لقد أحببتك قبل الآن، وعشنا سويا كعاشقين. لقد عشت معك، وكنت ملكة، وكنتَ قائد الحرس في جيشي، أحببتك... لكنك أحببت الحرب أكثر مني، ذهبت إليها وقُتلتَ مطعونا بالسيف. أتدري كيف متُ أنا؟ هربت إلى الغابة مع حراسي، لكن الأعداء لحقوا بنا، طلبتُ من حارسي قتلي قبل أن يصلوا إلينا. مت في الغابة، مازلت أذكر نعيق الغربان، وحوام الأشباح

حول جثتي، مازلت أذكر سفري الطويل في العدم قبل أن أعود من جديد.»

الجزء الأكبر من حياة جمانة معي أمضته على السرير، تمارس حياتها عبر السرير الكبير الذي تُغير ملاءاته مرتين في اليوم، صباحا ومساء، فور استيقاظها، وقبل نومها. عادة واظبت عليها طوال حياتنا معا. تفرد على السرير أوراقها، وألوانها، وكتبها، تضع الصحف والمجلات، وجهاز الكمبيوتر والآيباد. وإن لم تكن على السرير، تكون واقفة أمام المرآة لتتزين، أو لترقص.

وفي الليل، نكون معا على السرير أيضاً. في كل ليلة تكون هي امرأة جديدة لا أعرفها، وجسدها في كل ليلة يتجدد سحره، كأنها تغسله بماء من فضة، كأني أجهل هذا الجسد، ولا أعرف كل تفاصيله وخباياه، جسدها الأسطوري الفارع، المضيء، اللدن، الذي يبتسم ويئن، ويفتح لي أبواب الدنيا كلها، ويغلقها في وجهي في آن واحد. كنت أقول لها بدهشة إنني لم أتمكن من معرفة السحر الذي يمتلكه جسدها علي، كانت تضحك بغنج وهي تداعبني قائلة إنها تستحم كل ليلة بماء تبيته سبع ليال تحت ضوء القمر، إنه الماء السحري الذي يجعلها امرأة جديدة في كل ليلة.

حكت لي ذات ليلة أن أول رجل أحبته هو الضابط، لكنها لم تمارس الجنس معه. كان رجل الثلج أول من عرف جسدها كاملا، هذا ما قالته. أصر على الزواج منها، لاحقها، وطاردها طويلا كي يتزوجا، أخبرها أنه تمنى إنجاب طفل منها، لكنها فرت منه. أما صاحب الشقة الرجل الثري البدين فتصف علاقتها به بأنها أكبر حماقة في حياتها، لكنها تحكي بحنين مراوغ عن شبيه المطرب خوليو

إيغليسياس وتصفه بأنه كان رائعاً في الحب، لكن لم يكن مقـــدراً لهما أن يظلا معا كحبيبين. بين هذه الأسماء هنـــاك آخـــرون لا أعرفهم، الوزير، والفنان، والمحامي الذي كان على علاقة بوالدتها، كما أخبرتني مرة وهي ثملة.

حين عدنا من باريس لنسكن في بيت عائلتي، طلبت منها أن تختار أثاثا جديدا للجزء الذي سنسكن به من البيت الكبير، لكنها لم تُظهر أي اهتمام بالأمر، كل ما طلبته تجديد الستائر، واستبدال السرير بآخر يتسع لنوم أربعة أشخاص لا اثـــنين. ولمـــا أعطـــت مواصفات السرير للنجار الذي جاء ليأخـــذ مقاســـات الغرفـــة، أحسستُ بالخجل وأنا لا أجد مبررا كافيا لطلب زوجتي ســـريرا مساحته كبيرة إلى هذا الحد. لم أكن أعرف أنها ستمارس جـــزءا كبيرا من حياتها على ذاك السرير، وأنها ستقرأ، وتكتب، وتراســـل أصدقاءها، وترسم، وتغني، وتسجل قصائد شعر بصـــوتها وهـــي تجلس ممددة شبه عارية، ثم في لحظة حماس فورية تهب واقفة لـــتلم كل الأشياء وتضعها جانبا، تزيح غطاء السرير، وتتركه مجردا بلا ملاءة، تقول إن مسامات السرير تشتاق أيضا للعري، كما كانت تفعل حين تتجول عارية في أرجاء المنزل.

ليس هناك امرأة أجمل منها، لن يعرف العالم وجهـــا فاتنـــا كوجهها، ولا جسدا بديعا كما كان جسدها. لو طلب مـــني أن أرسم حورية من الجنة أو عروس بحر، سأرسم صـــورتها بـــلا أي زيادة أو نقصان.

عاشت جمانة مأساة عائلية حين ماتت أمها منتحـــرة بـــأن أطلقت رصاصة على رأسها، في شقتها الصغيرة في باريس. لم تكن

جمانة معها في ذاك الوقت، كانت قد عادت إلى بيروت، بعد مضي عام على غرق شقيقها المراهق في البحر. صاحب الملهى الليلي الذي تعمل به الأم هددها بالطرد، تدهورت حالتها بشدة عقب فقد ابنها وصارت تشرب حتى الثمالة أغلب الوقت. حكت لي جمانة هذه التفاصيل وهي تنام في حضني، في لياليا الطويلة معا؛ كانت تختم كلامها وكأنها تحادث نفسها قائلة: «أمي تشبه داليدا، كلتاهما فنانة اختارت الانتحار» هكذا كانت ترى أمها فنانة لم يساندها القدر لتكون بالشهرة التي تستحقها.

في عيني جمانة وهي فرحة، كنت أرى نظرة تذكرني بعيني أمي نادية، قبل أن ترزح تحت ثقل نوبات الاكتئاب، وأنا صغير تحتضنني وتقول لي: «ميرو أنت أجمل شيء في حياتي».

ظللتُ طفلا وحيدا، لم تنجب أمي غيري. لا أعرف إن كان حدث هذا بإرادتها أم لا، لكن نادية كانت أكثر هشاشة من أن تعتني بأسرة فيها عدة أطفال. لكنها غمرتني برعاية فائقة، كانت ترافقني إلى المدرسة صباحا، نذهب سيرا على الأقدام أو في سيارتها الصغيرة في أيام الشتاء القاسية، تنتظر عودتي ظهرا، وتستمع ليومياتي وتشاركني دروسي وواجباتي، ثم ترافقني إلى السرير لتحكي لي حكايات أدرك الآن أنها كانت من وحي خيالها الخصب. لم ترق لي قصص الأطفال، لاحظت أمي هذا منذ صغري، تصفني بأني كنت طفلا هادئا أكثر مما يجب. هي أيضا أول من لاحظ اهتمامي بالهندسة، وتركيب مكعبات «اللوغو»، كانت تلتقط بكاميرتها صورا لكل ما أفعله منذ يوم ميلادي، حتى أنها ظلت محتفظة بذؤابات شعري حين قصته لي أول مرة.

حين كنت أبني بيوتا من المكعبات الخشبية، تصورها وتعرضها على أبـــي الذي ينظر إليها مبتسما ابتسامة شاحبة، يهز رأســـه دون أن يقوم بالتفاعل الذي تريده هي، وأنتظره أنا، لا تصفيق، لا تهليـــل، لا مباركات حماسية، هذه الأمور كنا نفعلها سويا أنا وهي، وحـــين يحضر أبـــي أعود لأصبح الطفل الوقور الذي يريده.

ظللت رفيقها حتى الثالثة عشر من عمري، أذهب معهـــا إلى بيروت أرافقها في شراء ثيابها وكتبها وسيديهات الموسيقى الـــتي تحبها، نتناول طعام الغداء معا في مطعم يقدم البيتـــزا في شـــارع الحمرا، ثم نعود إلى الجبل. هي أيضا ظلت تصـــاحبني في تمـــارين السباحة، والتايكوندو، أصرت على تعلُمي رياضـــة قتاليـــة، في الحقيقة كانت تدفعني لتعلم أشياء كثيرة لا ألبث أن أتمرد عليها، لم أُطق تعلم عزف الكمان، بينما احتملتُ دروس البيانو لعدة أشهر ثم تركتها، كما تركت رياضة التنس، كان في داخلـــي ســـأم لا أعرف مصدره، ربما ورثته عنها، لذا لم تكن تُمارس علي ضغوطا كي أستمر، فهمتني أكثر مما فهمت نفسي.

الآن، بعد مرور كل هذه الأعوام، أشعر أني لم أكن مثل بقية الأولاد الذين في مثل سني، ولا كانت حياتي طبيعية، دون أن أدرك السبب، دائما ظل احساس بالتوتر يخيم على بيتنا. أفكر أن هـــذا التوتر المكتوم هو ما ورثته عن أبـــي، لم آخذ عنه حبه للأرقـــام، ولا مهارته في عقد الصفقات، ولا رسوخ إيمانه بالحصول على متع الحياة، بل توتره فقط.

لكن لابد أن تأتي تلك المرحلة التي يسعى فيها الأبناء للتمرد على أقرب شخص لهم. في سنوات مراهقتي صار لي عالمي الخاص

الذي تشكل بعيدا عن أمي، رفاق الدراسة، الغراميات العابرة الصغيرة، النزهات البحرية والتخييم في أماكن بعيدة، كل هذا أخذني منها. أحزنها الأمر لكنها تركتني أخوض تجاربي وحدي، أعرف أنها كانت تراقبني من بعيد وتتبع أخباري بحرص كي لا ينكشف أمرها بأنها تتجسس علي، لكني كنت أكثر كتمانا من أن تنكشف مغامراتي التي أخجل منها، أول سيجارة ملغومة، أول مغامرة جنسية، أول عراك من أجل فتاة تَرك جُرحا في جبيني، وتسببت فيه بكسر إِصبع خصمي.

أبعدتني أمي عن السياسة، والنزاعات الطائفية، رسخت في داخلي ايمانها المطلق بلبنان الموجود في خيالها فقط، بلا طوائف، ولا نزاعات، كانت تكرر جملتها التي تستفز أبي: «بأن كل من يتحدث بالطائفية، هو شخص ملعون.» لكن لبنان الذي حلمت أمي به لم يتجل واقعيا سوى في البحر والجبل وفي الغابات البعيدة، والأنهار الصغيرة، وفي قلة من الوجوه التي عرفتها. أما سائر ذلك فقد كانت شِباكا منصوبة باستمرار، صراعات طائفية، وانقسامات، كان أبي ضمن حلقاتها، وأنا كنت ابنه النافر، الذي خيب ظنه على الدوام.

أبي في طفولتي وشبابي، ظل ينظر إلي كطفل، هي كانت تنظر إلي كرجل، تقول لي: «مارو أنت ابني وأخي وصديقي»، وكنت أحس أنها بكلماتها هذه تُلقي على كاهلي بحمل كبير. لم تكن أمي ضعيفة، بل كانت تنتمي لنوع من البشر الذين يرتبطون بخيط غير مرئي مع عالم آخر محجوب، هذا النوع من البشر لديه هشاشة غير مفهومة، يعتبرها الناس العاديون ضعفا، وعدم قدرة

على مجابهة الحياة، وخوض عراكها، لكن هذا غير صحيح، الضعف حالة ترتبط بالظرف الخارجي الموجود، مضاد حالة الضعف هي القوة، الضعيف ربما يتحول إلى قوي في ظرف آخر، بل إلى قوي شرس أو لامبالٍ بالآخرين؛ بينما الهشاشة ترتبط بالطبيعة الوجودية للشخص، هي كان لديها هشاشة في علاقتها مع العالم سواء كانت في ظرف خارجي قوي أو ضعيف، ليس للمحيط علاقة بكيانها الداخلي، أمي كانت تنتمي لهذا النوع من البشر الذين يمقتون الزيف، وليس لديهم القدرة على التجمل. لا أبي أحبها كما هي، ولا أمها فهمتها، لذا ظلت غريبة طوال حياتها، لقد أدركتُ هذا في وقت متأخر، بعد أن التقيت مع جمانة، لأنها تشبهها أيضا، من الصعب الامساك بها، والاقتراب من عالمها الداخلي القصي، وهذا ما ظللتُ أفعله طوال حياتي معها.

في كثير من الأحيان كنت أجد أمي راقدة على السجادة في غرفتها، في وضع جنيني أسألها: «لماذا تنامين على الأرض يا ماما؟» ترد بأنها تعبانة، جسدها يؤلمها، ولا تقوى على الصعود إلى السرير.

أعرف أن حياتها مع أبي كانت سببا أساسيا لتعاستها، لم يكن يضربها أو يسيء معاملتها، لكنه كان خشنا مثل رائحة كافور تتسرب بغتة في مساء ربيعي رائق. ما إن يصل حتى يتسلل إلينا إحساس بالدكنة، فنصمت، أحيانا كنت أسمع مشاجرتهما، قال لها مرة إنها اختارت لي اسم مروان على اسم أحد أحبائها، هي كانت تهدده بأنها ستتركه وتعود إلى أهلها في دبي. يرد عليها بأنه لن يسمح لها بأن تأخذني معها، فلتذهب وحدها لو أرادت الرحيل؛ لطالما رأيتها دامعة العينين، لكن في السنوات الأخيرة قبل سفري،

لم أعد أراها تبكي أو تضحك، تظل صامتة، أقول لها بالإنكليزية مداعبا: «Mama you are not funny» ترد بلا مبالاة على دعابتي، مؤكدة أنه ليس هناك في الحياة ما يدعو للفرح. كانت عاجزة عن البكاء، عاجزة عن الضحك.

في بداية زواجها من أبي طلبت منه الانتقال إلى بيروت لكنه رفض بشكل قاطع، هو لا يحب أن يمضي لياليه وإجازاته معها في حفلات وسهرات في مطاعم تُغلق أبوابها بعد منتصف الليل؛ بل برفقة أصدقائه ونساء عابرات حيث يشرب العرق ويعود مخمورا، وهي تحب السينما والمسرح والسهر على شاطئ البحر ليلاً وسماع موسيقى الجاز، ولا تود أن تُمضي عمرها في قرية جبلية معزولة، يفصلها الثلج عن العالم طوال أشهر الشتاء.

لكن كلام نادية بالنسبة له لم يكن مهما، فقد اعتاد أن يدفعها للتراجع عما تريد، استسلمت لحياة القرية، لكنها ظلت نائية، كأنها تنظر إلى العالم من خلف زجاج عازل. كانا أولاد عمومة، لكن جدي والد أمي هاجر إلى الخليج في صباه المبكر، وظل هناك هو وأسرته، أنجب ثلاث بنات كانت أمي كبراهن، كان أبي يلتقي بها في زياراتهم الصيفية إلى لبنان، ربما أحبها منذ كانت في السادسة عشر، لكن أبي لا يعرف سوى طريقته في الحب، وليس على استعداد لمعرفة أي طريقة أخرى.

حين مات أبوها، أحست الأم والفتيات بالانكسار، تقدم أبي للزواج من ابنة عمه نادية، وافقت بسرعة ربما ظنت أن عودتها إلى لبنان والبدء بحياة جديدة، ووجود رجل مسؤول عنها سيخفف من مُصاب رحيل الأب.

أمها أصرت على العودة إلى دبـــي، أخذت ابنتيها وعـــادت لتكمل «البزنس» الذي تقوم به، تشتري الأثاث الجيـــد الـــذي يتخلص منه أصحابه الأثرياء، تعيد تجديده ثم تصدره إلى لبنان كي يُباع بأضعاف سعره. جدتي والدة أمي رأت في زواج إحدى بناتها تخلصا من مسؤولية صارت على عاتقها، لطالما شعرتُ بمدى غرابة العلاقة بين أمي وأمها، والتناقض الكبير بينهما، جـــدتي مبتهجـــة دائما، متأنقة، تعرف كيف تحصل على كل ما تريده، بينما أمـــي تُناقضها كلياً في سكونها واستسلامها المطلق للواقع.

في سنوات مراهقتي ازدادت كآبتها أكثر، كانت تظل صامتة طوال اليوم، تزامن هذا مع نكسة أبـــي في البورصة، تقوقع كـــل منهما في عالمه أكثر، لم تعد أمي قادرة على الإشراف على البيت، أو طهو الطعام، أو متابعة شؤوني الدراسية، حين شاهدها أبـــي تذوي إلى هذا الحد وافق على الانتقال إلى بيروت، أو حتى السفر معها إلى أهلها، لكنها رفضت تماما، قائلة إنها لم تعد ترغـــب في مغادرة بيتها. كان يسألها عما تريده وكانت إجابتها واحدة، ظلت تتكرر لسنوات: «لا شيء». كان اللاشيء هو ما تريده حقا.

حين أنهيت دراستي الثانوية، لم تـــرض أن أدرس في إحـــدى جامعات بيروت، أصرت أن أسافر إلى باريس لأدرس هناك هندسة العمارة كما كنتُ أريد، وهذا ما حدث. لكن مثـــل أي شـــاب طائش، مشغول بعالمه عن استيعاب ما يدور في عالم الناضجين، لم أدرك أنها كانت تخبو ببطء. بعد مرور عـــامي الدراســـي الأول، رحلت، نامت بهدوء في إغفاءة أخيرة في سريرها الخشبـــي الكبير، ولم تستيقظ.

طلبتُ من أبـــي عدم الاقتراب من غرفتها حتى أعود. كنت أحتاج أن أتحدث معها حواراً طويلا قبل غيابها الأبدي، تـــركتني نادية، ورحلت، لم تخمن أنها ستترك في داخلي ألماً لا يـــزول، و لم أعرف حينها أن جمانة ستتركني أيضا، سترحل بطريقة أكثر قسوة ووجعاً.

حين كانت جمانة تغضب مني، وتبعدني عن حياتها، تخاصمني لأيام لأسباب تافهة لا تستحق الزعل، كنت أنسحب من حياتهـــا طويلا، أكثر ما كنت أخشاه أن تحس بثقل وجودي في عالمها، لذا كنت أمضي ولا أرضى وصالها إلا بعد أن تحاول مصالحتي لـــيس لأني لا أشتاق لها، بل لأني أخاف من حبها الغريب، من افتتاني بها الذي ظل غير مفهوم بالنسبة لي على الإطلاق.

10

مثل كل الجرائم، لم تنته تبعات جريمة قتل واختفاء جثة جمانة بسرعة، خاصة مع وجود ما يشجع على إذكاء النيران؛ فقد تناولتها الصحف والمجلات والمواقع الإلكترونية التي نبشت في تاريخ القتيلة المختفية ونشرت عن مشاركتها في عدة فيديو كليبات، وبعض عروض الأزياء، وعدة مشاهد من مسلسل متوسط القيمة.

استفاضت الأقلام في الحديث عن ما تتمتع به من جمالٍ محسود، وفي التلميح لعلاقات غرامية متعددة جمعتها بسياسي ومحامٍ معروف، بمطرب شهير، ومليونير شاب ورث الملايين عن أبيه، ثم سفرها إلى باريس وغيابها لسنوات، عودتها واحتجابها عن المشاركة في أي ظهور علني في المجتمع الذي كانت تعرفه. ربما المبالغات في الحكايات، جعل من بعضها شائعات تبتعد عن الحقيقة.

وفي «حي الأمير»، تكرر ظهور الضابط الذي تولى التحقيق وجمع معلومات عن الجريمة، استدعى معظم سكان الحي، سألهم عن طبيعة علاقتهم بالقتيلة. لم تساعده تلك التحقيقات في شيء، خاصة أن هاتف جمانة المحمول لم يتم العثور عليه، بل اختفى مع جثتها، مما جعله يقول لمروان في لحظة انفعال: «إن اختفاء الجثة يعني انتفاء الجريمة.»

وحدها هيام حكت للضابط عن وجوه غريبة شاهدتها في أوراق جمانة يوم أتت إليها لتقرأ لها ورق التاروت، سخر المحقق من

كلماتها في البداية، لكنه غضب حين قالت له: «بتعرف سيدنا، ما رح توصل بهالقضية لشي، اذا انقتلت أو اختفت، أو لا، بس كان في دم بورقها.»

في مرات أخرى جاء لأخذ أقوال دية، التي لم تفده بالكثير مُبدية تأففها من إقحامها في الأمر، أما زوجها وسكرتيرها أسعد فقد أوضح للضابط ملاحظته أن جمانة وزوجها لم يكن لهما أي علاقات اجتماعية مع سكان الحي و لم يكن يزورهما أي أحد، لا من أسرتها ولا من أسرته، لكن قبل أيام من مقتلها شاهد مروان في الشارع مساء يتحدث مع رجل طويل وأصلع.

استدعى الضابط لوسي أكثر من مرة، وكانت تكرر ذات الكلام، ولولا أن إقامة لوسي شرعية في لبنان، كان سيتم احتجازها أو ترحيلها، وجاءت إفادة لوسي تكرارا لعبارات مشابهة لما قاله أسعد، مع إضافات أربكت الضابط أكثر مما أرشدته، لأن معلوماتها تأتي منقوصة غالبا، فلو ذكرت حدثا ما فإنها لا تذكر متى وقع، وإن تحدثت عن امرأة أو رجل من معارف الزوجين تُسهب في وصف شكله الخارجي وتُنكر معرفتها باسمه.

كان الضابط يود الحصول على أي طرف لخيط يقوده إلى الجاني، لكن محادثة زوج الراحلة مع رجل طويل أصلع لا تفيد بأي دليل، مروان أفاده بأن ذلك الرجل أحد معارفه القدماء، يتردد على «بودا بار» والتقى به صدفة، وأنه لا يعرف عنوانه أو رقم هاتفه.

طلب مروان من الضابط مساعدته في إصدار تعليمات بعدم النشر في القضية، لكن في الحقيقة لم يكن هناك ما يُنشر فعليا عن

سريان مجرى التحقيق، بل ما نُشر كان عن جمانة وما في حياتها من أسرار وخبايا، فالتحقيق لم يصل لأي نتيجة تُذكر؛ والجريمة وقعت في ساعات الصباح بعد مغادرة الزوج إلى لعمل، وقبل قدوم الخادمة لوسي ظُهرا، فقد كانت في إجازة عند صديقة لها، وهذا ما تم إثباته، بالإضافة إلى عدم وجود أي سرقة، فقد وجدت أموال ومصاغ جمانة على قلتها في مكانها.

ظل ملف القضية مُعلقا، لكن لم يحدث فيه أي جديد، مثل كثير من القضايا في لبنان، خاصة تلك التي يرد فيها أسماء مشاهير وأثرياء، يكون من الأفضل لجميع الأطراف تجاهلها حتى تتلاشى وحدها وتسقط من الذاكرة.

لكن كل من عرف جمانة يوما سواء بشكل عابر، أو عن قرب، كانت له تخيلاته المفترضة عن تلك المرأة التي حفلت حياتها، كما مماتها بهالات من الغموض.

حسون الأبله

اسمي حسن، يقولون عني في الضيعة حسون الأبله، لا أعرف لي أبا ولا أما، ولا أعرف من أين أتى اسم حسون، وكيف وصلت إلى هذه البلدة، أو أنا ابن من فيها! تربيت في الكنيسة والجامع، وأكلت في كل البيوت، وعلى كل الموائد. عرفت الأسرار والخبايا، والخيانات التي تحدث وراء الجدران. لكن لن يهتم بي أحد، ولا بما سأقوله.

لم أحصل على قبلة حقيقية من امرأة سوى من جمانة، ربما كانت قبلة عطف، لكنها لم تكن قبلة شفقة. كنت ألتقي بها حين

كانت تتسلق الجبل، أو تنزل الوادي، تقف معي لتحدثني، وتسألني عن حالي، وعن سبب الندبة الممتدة من أذني اليمنى إلى رقبتي. لم أكن أعرف تاريخ الندبة، ولا سببها، ولا لماذا اهتمت هي بالسؤال عنها. مرت بأصابعها الرقيقة لتلامس الندبة، كنتُ قصيرا، وضئيلا أمام قامتها الفارعة، انحنت هي وقبلت خدي وربما تمتمت بأنها آثار سكين قديم، أمسكتُ يدها وقبلتها بسرعة، لمستُ رقة العالم كله، التي لن أعرفها مرة أخرى أبداً.

بتول: صديقة جمانة

آخر رسالة وصلتني من جمانة عبر البريد الإلكتروني منذ عدة أسابيع، قالت إنها غير مطمئنة، حكت لي أشياء كثيرة عن حياتها، وشعرت أن بين السطور أمور لم تحكها ولم تكتبها ولا تستطيع التحدث بشأنها عبر الهاتف؛ قالت إنها تفكر بالفرار، لكنها لا تملك مكانا تذهب إليه، لعلها أكثر الناس معرفة بالألم الداخلي العميق الذي قد يسبب وجعا والتياعا لا يزول، عذاباتها العميقة لا يمكن إدراكها إلا لمن عرفها عن كثب، وعرف طيبة قلبها وسخاءها الذي يصل حد غرابة الأطوار.

في إحدى المرات كنا نسير مساءً في أحد شوارع باريس الجانبية، استوقفنا طفل يتسول كي نعطيه بعض المال لم يكن قد تجاوز العاشرة من عمره، نظرت إلي قائلة: «دائما أحب أن أكون سببا في سعادة شخص ما»، ثم حولت نظراتها نحو الطفل وقالت «سأعطيك المال بشرط أن تبتسم.» تحولت ملامح الصبي من العبوس إلى الاستغراب مما قالته، ثم أخرجت من حقيبتها مبلغ مائة

يورو وهزها أمام عيني الصبي قائلة، ابتسم قبل أن تأخذها، مد لها يده وهو يضحك ظنا أنها تهزأ منه، أخذها من يدها غير مصدق، وسارع بالفرار.

كتبت لي منذ شهرين تقريبا أنها تحدثت مع مروان بشأن الطلاق، لكنه رفض تماما التكلم في هذا الأمر، وحين سألتها عن سبب إصرارها على الانفصال عنه، قالت إنه يتخيل أشياءً غير حقيقية، ثم يجبرها على الاعتراف بها، ويتوهم وجود عشاق لها مازالت على علاقة بهم، وأنها تشعر بالاختناق لأن كل تصرف تقوم به عُرضة للشك من جانبه، لكنها عادت وكتبت لي في رسالة لاحقة ما ينفي كل هذا، قائلة إن مروان ليس مجرد زوج، بل هو صديق يدرك ما في نفسها، ويتقبل عن طيب خاطر كل عمل تأتي به، وكل رأي تُبديه.

لكني أحسست من نبرة كلماتها أن جمانة اشتاقت لحريتها، لأنها امرأة ملولة تُفضل الحرية على أي نوعٍ من الحب مهما كان قويًا وصادقًا. لم يحدث أنها ارتبطت برجل لأكثر من ثلاثة أعوام، بل إنها عاشت مغامرات لأيام فقط، ناظرة لأي وله عاطفي بخفة ومرح، لطالما قالت إن الحب لا ينبغي أخذه على محمل الجد، فالجذوة التي تتقد في قلب العاشق لا بد أن تنطفئ بعد حين مهما طال زمن اشتعالها، لأن الهوى ليس له علاقة بالمنطق، وهذا كان يتجلى في اختيارها لعلاقاتها، وفي ارتباطها برجال غربيي الطباع والملامح، تبرر ذلك بأن المرأة الجميلة من الممكن أن تحب رجلا قبيحا، وأن المتعلمة قد تقع في غرام جاهل، والغنية في هوى فقير. وعلى هذا الأساس حين يخمد ذاك الاشتعال كانت تهجر

عشاقها، بلا حزن، ودون أن تفارقها الابتسامة. لكن علاقتها مع مروان طالت لتتجاوز الأعوام الثلاث، ربما هذا ما كان يُثقل روحها.

العم ناصف، قريب مروان

رغما عنك، تدفعك هذه المرأة إلى التفكير بالفتنة. كنت أعرف أنني أرتكب إثما في تفكيري المستمر بها، حياتي لم تكن خالية من الخطايا والآثام، لكن من غير المعقول أن أفكر بزوجة ابن أخي، أن أشتهيها، أن أتمنى مبيتها في فراشي، إنها من نسل حواء الأصلية، الأنثى المغوية، التي لم يُهذبها الزمن. لكنها لم تحاول إغوائي أبدا، هي تتصرف بطريقة طبيعية ليست بقصد الغواية، لكن كلها غواية. كانت رؤيتها تحرك بي شبقا غريبا نسيته من أيام الشباب، أنا الرجل السبعيني لم أعرف أساس ولعي بها، خفت كثيرا أن يفتضح أمري، ويبين ما في جوارحي من غرام نحوها. إنه الجمال المغوي، الملعون، الذي يجبرك على التحديق به، على التخيل طويلا، تخمين لون الجلد التفاحي خلف الملابس، وتمني لثم الجزء الظاهر منه. لقد أتعبني وجودها حقا، كلما كنت أبصرها تقف في الشرفة، أو كلما أتينا مساء لزيارة بيت أخي.

منذ جاءت جمانة برفقة ابن أخي وسكنا الدور العلوي من البيت الكبير، تغير شيء ما في البيت لم يعد هادئا كما كان، ثمة ذبذبات غريبة سكنت كل أرجائه، ذبذبات لا يمكن فهمها، كنت أتخيل أن هناك عشرات من الجمانات، يختبئن في كل مكان، أتلفت حولي وأنا أجلس في الحديقة، أو في الصالون الكبير، أو على مائدة

الطعام، وأحس أن خلف كل جدار هناك جمانة، ستظهر لي بثوب أبيض شفاف لتقول لي: «ما رأيك يا عمو، كيف تراني يا عمو؟»

أتحاشى النظر إليها في حال وجودنا معا، لو نظرت طويلا لن أستطيع إبعاد نظري، ثم أبدأ بالتفكير بابن أخي الأحمق الذي أمضى سنوات شبابه في الدراسة، فلم يعرف صنف النساء كثيرا، كيف يمكنه أن يُمتع امرأة مثلها! هل يداعبها جيدا؟ هل يتحسس جلدها طوال الليل، ما هي رائحة مساماتها حين تكون غافية، لطالما عذبتني الرغبة في تذوق الطعم المالح لتعرقها بعد لحظة حب، تمنيت لو كان بإمكاني اختلاس النظر ورؤيتهما معا وهما يمارسان الحب، ليتني تمكنت من ذلك.

أكثر الأوقات عذابا بالنسبة لي حين تجبرنا المناسبات الاجتماعية على التواجد معا لوقت طويل، رغم سكنها مع ابن أخي في البيت الملاصق لبيتنا، إلا أني بعد اشتعال نار هواها داخلي توقفت عن زيارتهما، كنت ألمحها عبر الشرفة، أو أراها في غرفتها ترقص شبه عارية أمام المرآة بحذاء أحمر رفيع الكعب تنقر به على الأرض وكأنها تدوس على أعصابي، أراها وهي تتنزه قرب البيت وحدها، أو حين تنزل إلى الوادي وهي ترتدي شورتا ضيقا من الجينز، وبلوزة قصيرة تكشف بطنها. كانت هذه اللمحات العابرة كافية لأن تشعل بي الحرقة على الجمال المتحسر عليه، الذي لا يُضاهى، ولا يمكن الإمساك به.

أتخيل تقلباتها، شعرها الطويل الأصفر، حركة ذراعيها التي تشبه حركة طائر بجناح أبيض كبير، أتخيلها في فراشي عارية، أحس بيدي الجافة تداعب جسدها بتعجل، أعرف أنها سترحل،

وأنها تسللت إلى سريري خلسة عن الأعين، أتت لترحمني من النيران المشتعلة في جسدي، تتركني أتلمس جسدها كما يحلو لي، على عجل، فليكن. أتحسس ظهرها الناعم، أقبض بيدي على بطنها المدورة قليلا، ألثم شفتيها القرمزيتين بلهفة، ألثم ثدييها كطفل عجوز، أشدها من شعرها وأطلب منها الرحمة. أراها تمضي عارية كما أتت، إلا من شال أبيض طويل تلتف به وهي آتية إلي. أتوجع، وأموت ببطء من دون أن يدري أحد ما ألم بي من مصيبة هوى ضل طريقه إلي.

رجل الثلج

أردت الزواج بها من أعماق قلبي. حلمت بإنجاب طفل منها، لكنها كانت تتملص مني بسلاسة. سمتني رجل الثلج، لأني أخذتها معي إلى الكوخ الجبلي المحاط بالثلوج في أفقا. عرفت جسدها لأول مرة على الثلج كما تمنت، قالت لي وهي تضحك: «سأظل أذكر طوال حياتي رجل الثلج الذي يحب جنوني.»

لم يُغرها كل المال الذي أملك كي ترضى بالزواج مني، رغم أني لا أثق بالنساء، وضعت كل ما أملك بين يديها، لكنها تركتني ومضت، غير آبهة بكل ما بيننا. كنتُ أعرف أنها تكره القيود، والالتزام نحو أي أحد، لكني خمنت أن سلطة المال سوف تُرجح كفتي كما يحدث مع كل النساء، كما أني أول رجل عرف جسدها كاملاً. رغبتُ كثيراً أن تبقى معي، وأن نُكمل حياتنا سويا، كان لطلتها الملكية التي تميزها عن كل من عرفتهن من النساء سطوة كبيرة علي، تجعلني طفلا غبيا أمامها، أو كما كانت

تقول عني ضاحكة: «المليونير الصغير». لكنها تركتني أنا وملايين وسافرت إلى باريس، لتتسكع في شوارعها، كم مضى على هـذا الحدث! عدة أعوام، تألمت من رحيلها، ثم نسيته، كما أنسى أشياء كثيرة.

لكن رغم ذلك لم أتمن لها هذه الميتة. نشروا لنا صورا معا، لا أعرف من التقطها، أو كيف التقطت ولم ننتبه، وكيف تم تسريبها؟! نتعانق في رقصة حب في إحدى الصور، في صورة أخرى على الشاطىء ونحن بلباس البحر، تضع جمانة قبعة من القش، ملامحها شديدة الوضوح والجمال، ثم صور من حفل عيد ميلادها الذي أمضته معي وسط أصدقائنا.

لم أكن أحب أن تشاهد بناتي هذه الصور، لطالما سألتني زوجتي عن حقيقة علاقتي بجمانة، وكنت أنكر وجود علاقة خاصة؛ لكن الآن انكشف كل شيء. يا لها من صحافة قذرة، كل ما يهمها النميمة في تناول سيرة الموتى والأحياء.

الرجل الضفدع

لم يكن عمري ضعف عمرها فقط، بل كان بيننا من السنوات ما يجعلني في عمر جدها. كنت في الخامسة والستين حين عرفتها قبل سفرها إلى باريس، وكانت في العشرين. عرفت أمها من قبلها، لكن ماجدة لم يكن لها نفس جمالها وذكائها وفتنتها. كنتُ محامي العائلة الذي أسندت إلي أمها محاولة استعادة نصيبها من الإرث. في السادسة عشر من عمرها هربت ماجدة من أسرتها العريقة مع شاب من غير دينها، عرفت فيما بعد أنه كان طامعا

بأموالها، لكن اكتشافها لحقيقته لم يغير شيئا في مصيرها، بعد أن تزوجته وأنجبت منه طفلة، فقد تبرأ أهلها منها، وحرمها أبوها من الميراث. في سنوات الحرب تنقلت ماجدة مع زوجها بين فرنسا وبيروت، وعملت في أحد ملاهي باريس. وحين عرفت بموت والدها عادت لتطالب بميراثها الشرعي من إخوتها الذين مضوا على نفس سياسة الأب. لم يكن من صالحهم مشاركة ماجدة في الإرث.

جاءت جمانة برفقة أمها، لزيارتي في مكتبي، طلبت مني التدخل لصالحها بما أني كنت أدير شؤون الأسرة في حياة الأب، وعدتها بالمساعدة، رغم معرفتي أن القضية خاسرة، وأن والدها البيك باع أملاكه كلها لأولاده قبل رحيله، لكني لم أكشف لها الحقيقة، وظللت أقدم لها وعوداً وهمية. غادرت ماجدة إلى باريس وكانت تتصل بين حين وآخر، وكنت أقول لها مرة إني رفعت قضية على إخوتها، ومرة أخرى هناك عطلة قضائية، ومرة ثالثة أنهم رفضوا استلام إنذار القضية، وهكذا حتى تباعدت اتصالاتها.

ولم أعرف بانتحارها إلا حين دخلت جمانة إلى مكتبي ذات صباح بطلتها الفاتنة، وهي ترتدي السواد، ثوبا رقيقا يُبرز جمالها الذي يطغى على كل شيء. لستُ أدري ما الذي جعلها ترضى الدخول في علاقة معي؟ كانت تقول إنها لا ترى قبحي البين، لأنها تحب أشكال الرجال أصحاب الملامح الغريبة. كنتُ أشبه الضفدع، بعيني الجاحظتين وصلعتي، واللغد السمين حول رقبتي وكرشي الضخم. أدرك أني لا أمتلك أي نوع من القبول الشكلي، كما كان لي ضعفي عمرها، فما الذي جعلها ترضى المبيت في فراشي؟ لم أكن أصدق

أحيانا أن حفيدة البيك، تلك الحورية التي من المفترض أن تكـــون في ذاك القصر، هي خليلتي أنا، لكني تعلمت من مهنتي عبر هذه الأعوام الطويلة أن الأشياء غالبا لا تكون في أماكنها.

منذ البداية سألتني جمانة عن موقف قضية الإرث، وتـــرددت في قول الحقيقة، كما ترددت في الكذب أيضا لكني وعدتها بالمســـاعدة كما وعدت أمها من قبل. حزنتُ قليلا وهي تبوح لي عن معاناتهـــا بعد غرق أخيها وانتحار أمها. أي مأساة نسجت حياة ماجدة منـــذ تلك الليلة التي قررت فيها الهرب من بيت أبيها. لكن لم أعـــرف أن المأساة ممتدة لتطول حياة ابنتها أيضا. علاقتي مع جمانة تداخل فيهـــا العطف والرغبة، الحنو والأبوة، الشهوة والتجرد من الأنانية. لم أســـع لامتلاكها، للتدخل في حياتها، أو محاولة معرفة من تعرف من الرجال غيري، كان يكفيني منها أنها تأتي إلي لتحكي لي، لتبيت معي، لتطلب مساعدتي، كنت أستمتع برفقتها، وفي إنفاق المال ببذخ معها، يحلو لي تبذير ما جمعته من مال عليها، يروقني أن تشتري الثياب الغاليـــة، وأن نرتاد معا الأماكن الفاخرة، أحب أن أشاهد نظرات حسد الرجـــال لأنها تسير معي، وكأنهم يوشكون على القول: «الجميلة والوحش.»

وكما ظهرت جمانة فجأة في حياتي، غابت فجأة؛ لقد دربت نفسي على لحظة فقدها مرارا. كنت أعرف أن لحظة رحيلها عن عالمي آتية في أي وقت، ببساطة حين تمل من الرجل الضفدع. لذا لم أشعر بالخسارة، لقد أمضينا معا وقتا ظريفا.

يحزنني أن تموت بهذه الطريقة، وسيحزنني أكثر أن يأتي اسمي وهم يتناولون سيرتها، ويقولون إنها كانت على علاقة بمحام شهير. لا أود أن تلوك الألسن سمعتي بعد هذا العمر.

الوزير

أشك أن جمانة أحبتني حقاً. رغم أن ما جمعنا كـــان ولهـــاً جارفاً، التقيت بها في إحدى المناسبات الاجتماعية التي كانت هي نجمتها. كنت متزوجا، وأبًا لطفلين، لكن هذا لم يمنع أن نمضي في علاقة غرام لعدة أشهر إلى أن جاءت وقالت لي إنها لا تســتطيع العيش من دوني، وإننا يجب أن نفكر في الزواج والاستقرار معـــا، وإن ما تقوم به من أعمال فنية قليلة، ومن سهرات وحفـــلات، لا يعني لها أي شيء، وإنها على استعداد لترك هذه الحياة كي نعـــيش معًا.

فاجأني كلامها جدا، لم أتوقعه أبداً، ولم يترك أمامي إلا حلاً واحداً: هو الهرب، لكن الآن أفكر أنها أرادت التخلص مني حينها، لم تكن تحبني كل ذاك الحب كما توهمت. قيـــل لي مـــرارا إنهـــا خانتني، لكني لم أصدق أبدا، فكل ما كان بيننا بدا لي صادقا جدا.

أتساءل في سري: أتراها عرفت الحب حقاً، معـــي أو مـــع غيري؟ ما أكثر الذين تمنوا الفوز بالقليل من هواها، لكنها كانت تلعب تلك اللعبة المغوية بالنسبة لها، تقترب، تبتعد، ثم تترك العشاق يتألمون دون أي إحساس بالذنب. ليس جمالها وحده الذي يسبب كل هذا العذاب للمحبين، بل إنها تضيف إلى هذه المنحة الربانية، هوى بالجمال الذي تعشقه ويصير لصيقا بها. الجمـــال المتـــرف والفخم دون مبالاة بمصدره، والجمال البري الشرس الذي يصعب الوصول إليه، تبحث عنه بشوق لا يكل، وتسرع الخطى لاهثـــة وراءه.

سوزي: صديقة قديمة

يا للنهاية الحزينة لكل تلك الحكايات والقصص التي نسجت حياتها. أحيانا أفكر أنه من الطبيعي لمن عاش حياة غير عادية أن يموت أيضا ميتة غير عادية. لكن ما أعرفه عن جمانة، لا يعرفه أحد غيري إطلاقا، وكل ما يشاع من قصص هوى لم يلامس قلبها حقا. هل أحكي عن تاجر النفط العربي الذي أغرم بها، خلال وجودها في باريس، أم السياسي الفرنسي الذي هام في هواها. حكايات جمانة كثيرة، لكنها لم تكن صريحة يوماً بشأن الذين يتوددون لها، كثير من الحقائق عرفتها عنها بالصدفة.

لكن في عمر الثالثة والعشرين التقت جمانة بحب حياتها - كما وصفته لي يوما - كان لبنانيا من أم إنكليزية، أستاذاً للفيزياء في إحدى الجامعات الخاصة، وداعيا روحيا يستفيد من أي فرصة سواء عبر السفر أو عبر طلابه وطالباته ليحرضهم على المحبة والسلام الروحي ونبذ الحياة المادية بكل ما فيها من مظاهر كاذبة. كان الرجل ذا سمعة جيدة وحرص أن يحافظ عليها حتى في لحظات غرامه الروحي بجمانة، كما أنه كان متعصبا جدا للحياة النباتية، ولا يمكن أن يتساهل مع شخص يتناول اللحوم ويسرف في شرب الخمور، أو يمارس الجنس خارج إطار الزواج، بالنسبة له مثل هذا الشخص يحتاج إلى ترشيد نحو الحياة الروحية السليمة. لكن ربما لم يكن هذا الأمر فقط سبب ابتعاده عن صديقتي بديعة التكوين، بل كان هناك زوجته، التي اعتنقت التعاليم البوذية، وصارت تحسوب العالم معه أو وحدها، حليقة الرأس ترتدي في الغالب سروالا فضفاضا من الكتان، وتيشرت أو قميصا أبيض واسعا، لتبشر

بالتعاليم الروحية التي تؤمن بها، وتقدم خدماتها لمن يحتاجها من البشر. شاهدتها مرتين حين ذهبت مع جمانة للاستماع لإحدى محاضرات الأستاذ في الجبل. كانت تجلس إلى جانبه على الأرض الرملية، وكنا جميعا نتجمع حولهما في حلقة دائرية.

ظلت جمانة لأشهر طويلة مأخوذة بعينيه الصافيتين، بصوته الهاديء وقامته الفارعة ذات الطلة الأوروبية. بعد كل لقاء معه، كانت تظل لأيام في حالة تنويم مغناطيسي، سابحة في عالم من التخيلات والأوهام التي استعذبتها مدة عام كامل. أما في اللحظات التي تسمع فيها صوته فقد كان تنفسها يتلاحق، وتضع يدها اليسرى على قلبها كما لو أنها تخشى أن يصل خفقانه إلى الطرف الآخر عبر الهاتف. كانت تتلعثم بالكلمات، وفي اختيار الجمل وتركيبها، وبعد انتهاء المكالمة غالبا ما كانت تكشف لي عن إحساسها بتفاهتها الذاتية مقارنة بمعلمها الروحي القادر على إبهارها دائمًا. فبعد كل المغامرات التي عاشتها كان مقدرا لها أن تقع في هوى رجل يرفضها، لأن التزامه بالتعاليم الروحية يمنعه من إقامة علاقة مع امرأة غير زوجته، هذه هي العبارة التي قالها بوضوح لجمانة، مضيفا جملة: «حتى لو كنت أحبك» هذه الجملة أطاحت بما تبقى من عقلٍ عند صديقتي العاشقة، لظنها أنها تنطوي على اعتراف شبه مباشر بحبه لها، مما جعلها تنهار من البكاء يائسة، وهي تحكي له عن مقدار حبها، واستعدادها للعيش قربه من دون أي شرط أو التزام من جانبه. لكن الرجل الحكيم ربت على كتفها بهدوء الواثق والخبير، إذ يبدو أنه تعرض كثيرا لمثل هذه المواقف، ثم طلب منها أن تغسل وجهها، وتذهب حالا لممارسة التأمل مرددة

كلمات بالعربية والسنسكريتية عن المحبة والسلام الروحي.

لكن ساعات التأمل لم تنفع في إذابة ذاك الهوى العصي على الزوال، بل كانت تترك في قلب جمانة إحساسا أكبر بالألم المضني كلما تذكرته. لم تتمكن جمانة من نسيان هذا الحب أو تهميشه بحيث لا يكون أساسيا في حياتها، بل كانت تتحدث مع معلمها لساعات عبر الهاتف بحجة الاستفسار عن بعض القضايا الروحية والفلسفية في بعض المحاضرات والكتب التي زودها بها. وكان هو بين شد وجذب يقربها منه حينا عبر كلمات مزدوجة من الممكن تلقيها ضمن إيحائين عام وخاص، إذ ربما يكون مقصده المحبة الكونية الشاملة التي يتحدث عنها في كل حين، وربما تكون جمانة هي المقصودة. ارتضت منه بهذا القدر، عن استسلام، لا عن قناعة، فقد اعترفت لي أنها حاولت الإيقاع به في أكثر من مناسبة إلا أنه أبدا لم يستجب لأي من تلك المحاولات، بل إنه رفض تقبيلها رفضا تاما، وأكثر ما حصل بينهما كان عناقا لطيفا من الممكن حدوثه بين أب وابنته أو بين أخ وأخته.

حكايتها معه هي الحب الحقيقي الوحيد في حياتها، الحب الذي آلمها جدا، و لم تتمكن من إخفائه أو التخلص منه إلا بالسفر، و لم أكن أنا في حاجة لاعترافها كي أتأكد أنها أحبته، كنت أعرفها جيدا، عشنا سويا على مدى أعوام، سواء في باريس أو في بيروت؛ حالاتها النفسية لا تخفى علي، رغم أنها لا تعترف بالأحداث إلا بعد مرور وقت أو بعد انتهائها تماما. لم تحك لي تفاصيل غرامها بمرشدها الروحي إلا بعد أن تزوجت من مروان، كانت تستعيد ذكريات حبها معي ثم تختم كلامها قائلة: «خلص... كان زمان»؛

وفي الحقيقة لم يكن الزمن بعيدا جدا، لكن هذا جزءٌ من تركيبة جمانة النفسية أن تبدو غامضة أمام الآخرين، فلا يتمكن أحد من سبر أغوار حقيقتها.

لكن بعد زواجها، تباعدت عني قليلا، كما لو أنها تريد نسيان كل ما يربطها بالماضي، وكنتُ جزءًا من أحداث كثيرة أعرفها جيدا، وأعرف مدى رغبتها بنسيانها. لقد آذتني جمانة كثيرا، آذتني حين صاحبت رامز، وكانت تعرف أني أحبه. آذتني حين تقدمت للعمل في شركة لعرض الأزياء، وكانت تعرف أنه حلمي الأول، آذتني حين كانت تُظهر عطفها علي أمام جميع من يعرفنا، وكأنها ملكة، وكأني وصيفتها. كانت ذكية جدا، مؤذية وطيبة في آن واحد، وهذا مستفز، إذ كيف لم تلوث روحها كل هذه الحكايات، ربما هذا هو السر الذي أخذته معها إلى القبر!

الغريب

أنا الغريب الذي أحببتها أكثر من أي أحد آخر، لكني اكتفيت بمراقبتها من بعيد.

أراقب من بعيد كل ما يحدث، كل ما يقولونه.

أنا الغريب المنبوذ، المحاصر في مكاني، في رقعتي الضيقة.

أنا المحبوس في رقعة المدينة المشوهة، رقعة يقف على بابها جنود وحراس يتابعون حركة الداخل والخارج.

في رقعتنا الضيقة، تأتي إلينا وجوه غريبة لا أتذكرها، تقدم إلينا الوعود والوعود، كلما شاهدتهم قادمين أفر منهم، أركض وأركض وأركض نحو البحر المحجوب، أسقط أرضا من الجوع

والتعب، تتجه نحوي وجوه غريبة أخرى، بعضهم يرتدون السواد، والبقية ألوان أخرى لا أميزها، يشدونني من يدي، تتقطع أوصالي، وينمسح وجهي من تراب الأرض وحجارتها المُدببة، أزحف زحفا بطيئا عائدا نحو رقعتي، عاريا، مجردا، ليس لدي ما أدافع به عن نفسي سوى الحلم، وقصيدة كنت أردد أبياتها ذات يوم كلما غمرني اليأس، لطالما أحببت حفظ القصائد وتدوينها بخط يدي، وإلقائها بلحن تبتدعه مخيلتي ثم تنساه.

أنا الغريب الذي شاهدتني جمانة ذات مرة وابتسمت لي ثم أشاحت بوجهها بعيدا. أقرأ كل ما يقال عنها الآن وأبكي بحرقة غياب جمالها عن هذا العالم.

11

ذات مساء مُحمل بنسمات ساخنة، بعد مرور أسبوعين على وقوع الجريمة وجد مروان نفسه في الشارع، كل شيء على حاله، البنايات، السيارات المسرعة، المارة، البيوت، الدكاكين، الفرن، المقهى، محل الحلويات، العالم يمضي كما هو بنظامه الرتيب، لكن هو وحده من يحس أن عالمه كله انهار في داخله وصار رُكاما. أراد عبور الشارع ليشتري زجاجة نبيذ من المحل المجاور، أمضى أيامه ثملا، وغادر البيت في هيئة رثة، ذقن طويل وثياب غير مهندمة. رغم أن الوقت مساء، وقد ظن أن مغادرته البيت مع بدايات العتمة سوف تحجبه عن أبصار الآخرين، إلا أن كل من مر بجانبه من أهل الحي الذين تقاطع وجوده معهم ذات يوم، كانوا يتمتمون في وجهه بكلمات العزاء التي تذكره بمصابه، يرددون بأسف مع أسئلة مختبئة خلف العيون: «البقية بحياتك أستاذ..» «الله يصبرك»،» العمر الطويل لك»، يهز رأسه للقائل ويتابع طريقه دون توقف. من قال إنه يريد العمر الطويل! ماذا سيفعل بالأيام الطويلة القادمة المكرورة المملة؟

وجد نفسه وجها لوجه مع الدكتور يوسف الذي نزل من سيارة تاكسي، حاملا في يديه أصيصة زرع فيها شجيرة ورد مزهرة. توقف الحكيم وواسى الشاب المحزون بعبارات قليلة فيها من التعاطف والسؤال عن أحواله أكثر من الرثاء، تنهد الطبيب

كما لو أنه يقول في سره: «أين هو الشاب الوسيم الأنيق الـــذي شاهده عدة مرات، كان برفقة جمانة يمثلان ثنائيا مُلفتا لكل سكان الحي.»

دعاه الطبيب للجلوس معه في حديقة بيته وشُرب فنجان من القهوة، قَبِل مروان الدعوة باستسلام، ومشى إلى جانب الرجـــل العجوز الذي يحمل شجيرة الورد، تنبـــه إلى أن يعـــرض عليـــه المساعدة، لكن الطبيب رفض بتهذيب بحجة أن المســـافة ليســـت سوى خطوات معدودة.

فتح الطبيب الباب الحديدي بمفتاحه ودلفا إلى الداخل، نادى على حفيده عدة مرات، وحين لم يجد ردا، ردد بصوت مرتفـــع كما لو أنه يخاطب نفسه لا الشاب الذي برفقته: «يبدو أن يوسف غير موجود» ثم نظر إلى مروان قائلا: اجلـــس قـــرب الياسمينـــة، وسوف أحضر أدوات القهوة كي أُعدها ونحن نتحـــدث. عـــاد الطبيب ومعه عين غاز صغير مع صينية عليهـــا غلايـــة القهـــوة وفنجانين صغيرين، وكوب ماء بارد، أشعل النار ووضـــع عليهـــا ركوة القهوة، ثم نظر إلى ضيفه، فبدت له طاقة الحزن النافرة منـــه كما لو أنها تنتشر في فضاء الحديقة. حار الطبيب كيـــف يبـــدأ الكلام. ظلا صامتين هنيهات، تناول مروان كوب الماء، تجرعـــه دفعة واحدة كمن يُطفئ نيرانا تسري داخله، ثم اندفعت الكلمات من فمه، كأنه كان صائما عن الكلام:

«لم أتمكن من تقبل حقيقة رحيلها، ثم الاســـتمرار بالحيـــاة، كيف يمكن أن أحيا بسلام؟ أن أستمر كأنها ما كانت هنا! ثمـــة نزف مستمر في داخلي، كأن حز سكين يقطع شراييني، الحـــزن

يفتت روحي إلى ذكريات صغيرة، ينهش قلبي كل صباح ومساء، ربما جمانة قُتلت مرة واحدة واختفت وأنا هنا أتلقى الطعنات كل يوم. لا أجرؤ على الاقتراب من الأماكن التي كانت تجلس بها، أحس أنها ماتزال موجودة، في الغرفة، في الحمام، في المطبخ، تختبئ في مكان ما، وسوف تعاود الظهور.»

أجابه دكتور يوسف بنبرة هادئة: «هل تظن أني سأقول لك انساها، انس ذكرياتك معها، تجاوزها. لا أبدا، على العكس سأقول لك اغرق في حزنك حتى الثمالة، إلى أن يمل منك ويتركك، استسلم لجراحك كلها، واتركها تُلقي خارجا كل ما يفيض بها من قيح، ثم رويدا رويدا سوف تكتشف أن الزمن أقوى من أي شيء آخر، وفي كل مرة تظن أنك عرفت وجها من الحياة، سوف تُفاجئك بوجه جديد.»

وضع دكتور يوسف يده على شعره الأبيض وتابع كلامه:

«استمع لحكمة رجلٍ عجوز، عرف الموت والفقد وخبره مرات ومرات، طالما هناك حياة هناك ألم، لا مفر من ذلك.»

«لا.. لا، أنت لم تفهمني يا حكيم. ليس الحزن فقط هو مأساتي ولا أني عدت وحيدا كما كنت قبل أن ألتقي بها، ما لم أستطع قبوله حتى الآن موتها واختفاء جثتها بتلك الطريقة الغامضة، صورتها تطاردني ليلا نهارا. هل تظن أنه من الممكن قبول واقعي الجديد كزوج لامرأة مقتولة، وراء قتلها تختبئ حكايات، وأسماء، ووجوه، وأنا... آه... آه... أنا لا يشغلني هذا كله، ما يعنيني حقا أني فقدتها، وأنه لا سبيل لرجوعها إلى الحياة لدقيقة واحدة. وما يحزنني أكثر أني لم أتمكن من حمايتها، ولا من معرفة حقيقة ما حدث.»

«هل تظن أننا نستطيع حقا أن نحمي من نحب؟ هذا وهم كبير. حين كنتُ طبيبا شابا في مثل عمرك لم أتخيل أني سوف أتعايش يوميا مع فكرة الموت، كانت الدبابات الاسرائيلية تطوق بيروت عام 1982، وأنا في المستشفى الذي يفد إليه أعداد كبيرة من المصابين ويكون مطلوبا من طبيب جديد التعامل مع إصابات مُروّعة. تخيل أنه في بداية مزاولتك للمهنة يكون عليك بتر ساق حبيبتك، شابة فاتنة وقعت في غرامها تصل إلى المستشفى محمولة على نقالة، قدمها مصابة بالغرغرينا، ويكون عليك أن تمارس عملك بمعزل عن انفعالاتك وعواطفك، كثيرة هي المرات التي أوشكت فيها على الانهيار، ثم جاء إلى المستشفى طبيب بريطاني يكبرني بثمانية أعوام ترك بلاده وأتى إلى بيروت بعد مجزرة صبرا وشاتيلا بغرض علاج حالات ما بعد صدمات الحرب، كان يقول لي دائما إن ما ينبغي علينا معالجته بقدر ما نعالج الأجساد النازفة هو علاج وحشية الإنسان تجاه أقرانه من بني البشر، لم أنس هذه الجملة أبدا، لأن وحشية الإنسان مازالت تمضي جنبا إلى جنب مع الرحمة، كلاهما حي وموجود، لكن الوحشية تفوق الرحمة بكثير.

لابد أنك تتساءل عن سبب حديثي معك في هذا الأمر، فقط كي أقول لك إنني الآن بعد تجاوز السبعين من عمري، مازلت أذكر الحبيبة التي بترتُ ساقها ورفضت رؤيتي بعد ذلك، كانت تُصاب بنوبة من الانهيار كلما شاهدت وجهي، تصرخ وتعتبرني السبب في شقائها لأني أنقذتها وتركتها بدون ساق. لكني عشت بعد ذلك، أحببت من جديد وتزوجت وفقدت زوجتي وابني، ومازلت أحيا مع حفيدي هنا في نفس المدينة والشارع والبيت،

أقوم بالدور الذي ينبغي علي القيام به حتى يحين أجلي.»

هز مروان رأسه ثم قال: «لكني لست مثلك، لم أعرف بعد ما هو الدور الذي علي القيام به.»

«ربما العودة إلى الحياة، مواجهة النهار، رؤية الشمس بدلا من الرقود في العتمة»

قال له دكتور يوسف هذه الجملة وهو يقلب التربة بـــالقرب من شجيرة الورد.

حين خرج مروان من بيت دكتور يوسف فكر أن الفـــراغ الشاسع الذي يحس به في داخله، فجوته عميقة وشديدة الظلمـــة وتوشك على ابتلاعه، تلك الظلمة ابتلعت الحب والشغف والحرية والحلم، عاد وحيدا، عاريا، متجردا؛ لا يمكن لكل صخب العالم أن يواسيه في مصابه.

12

بعد مرور شهر ونصف على وجود لوسي مع دورا، وفي السادسة مساء بعد عودتها من عملها رن جرس الباب مرة واحدة، فتحت الباب بسرعة من دون أن تنظر في العين السحرية، وجدت شابا شاهدته من قبل لكنها لم تتمكن من تذكره بوضوح، ألقى تحية بلطف ثم سألها عن لوسي، نادت دورا على الخادمة وهي تقف مكانها تتأمل هيئة الشاب الذي بدا لها وسيمًا جدا، بقامته المديدة وعينيه اللوزيتين العسليتين. سرعان ما تذكرته ولوسي تهتف بحزن «مسيو مروان»، تبادلت لوسي معه بضع عبارات لم تتبينها دورا، ثم مضى بسرعة.

بعد مغادرته، بادرت لوسي بالكلام قائلة: «مسكين مسيو مروان، كان يحبها كثيرا»، ثم استطردت في الحديث عن مخدومتها الراحلة، سألتها دورا: «أليس لديهما أطفال؟»

هزت لوسي رأسها بالنفي، وهي تقول إن مروان يريد منها تنظيف الشقة غدا، لأنه سيغادر إلى بيت أسرته في الجبل لعدة أيام.

وجدت دورا فرصة مناسبة كي تُذكر لوسي أنها وعدتها سابقا بالمغادرة بعد عدة أيام، سرعان ما بدأت الخادمة في برطمة عبارات كلها تؤدي لذات المعنى أن مكتب التشغيل وعدها بالحصول على عمل في وقت قريب، وأنها لا تريد العودة إلى سريلانكا، ثم ختمت كلامها بالجملة التي جعلت دورا تنصت لها

بعمق وهي تقول إنها ستدخل إلى السجن، لو عادت إلى بلـــدها، لأنها متهمة بقتل زوج أختها روبرتو. استرسلت لوسي في ســـرد حكاية أختها التوأم المتزوجة من روبرتو المدمن الذي يضربها بعنف ويستولي على نقودها، ثم قبل أيام من سفر لوسي للعمل في لبنان، جاءت إلى بيت أختها لأن ابن أختها الذي لم يتجـــاوز العـــامين مصاب بالحمى وسوف تأخذاه معا إلى الطبيب، لكن روبرتو الذي كان ثائرا جدا بسبب شح المال، اعترض طريقهمـــا محـــاولا أن يستولي على ما معهما من مال، هربت أخت لوسي إلى المطـــبخ الذي يُطل على شرفة صغيرة، لحقها زوجها محاولا وضـــع يديـــه حول رقبتها لخنقها، جاءت لوسي من الخلف وقامت بضربه على رأسه بعصا مساحة المطبخ، لا تعرف كيف شج رأسه بســـهولة، تدفق الدم منه، وهو يسير خطوات نحو شرفة المطبخ، ويتدلى نصف جسده العلوي على حبال الغسيل.

أختها ريتا توسلت إليها أن تهرب بسرعة، لأن الشرطة سوف تُثبت عليها الجريمة، وستضيع عليها فرصة السفر حتى تتمكن مـــن تبرئة نفسها، اختفت لوسي ثم غادرت البلاد بعد أيام، كانت تتابع أخبار أختها من بعيد وترسل لها المال بين حين وآخـــر. ختمـــت لوسي حكايتها بأنها سعيدة لأن أختها تخلصت من روبرتو، وتعيش الآن وحدها مع أطفالها الثلاث من دون خوف.

لم تكن مثل هذه الحكايات جديدة على سمع دورا، لطالمـــا تعاملت مع نساء معنفات، أو جريحات من ضحايا العنف الأسري، أو مغتصبات في الحروب، لكن كل تلك القصص كانت بعيـــدة عنها، لم تكن تسكن معها تحت سقف واحد، شعرت دورا بريبة

وهي تفكر: «ماذا لو كانت لوسي هي من قامت بالمشـــاركة في قتل مخدومتها؟» لكنها سرعان ما استبعدت الفكرة، وهي تحـــس بالذنب لأن لوسي مثلها مثل كثير من النساء في هذا العالم، تتحول في لحظة الاعتداء عليها إلى ذئبة جريحة تدافع عن نفســـها وعـــن صغارها أو عن من تحب بكل ضراوة.

حين رن هاتف دورا المحمول وجدت اسم اختها مايا علـــى الشاشة، وعبر مكالمة مقتضبة عرفت دورا أن مايـــا وصـــلت إلى بيروت أمس، وأنها ستأتي إلى زيارتها غـــدا ليتناقشـــا ســـويا في الإجراءات التي ستقومان بها من أجل بيع بيت الجبل.

13

ظلت عينا دورا معلقتين على مقدمة حذاء أختها مايا الأصفر اللامع، وكعبه الرفيع، لطالما اندهشت دورا من قدرة أختها على بذل وقت طويل للعناية بشكلها، ولقدرتها على انتعال أحذية غريبة تشترك جميعها في طول كعب يتجاوز عشرة سنتيمترات، وتتراوح بين الرفيع جدا، والمتوسط، والعريض البارز مثل أحذية الجنود.

«بعد موت العمة كريمة أصبحنا نحن الورثة فقط، يمكننا البيع بسهولة. كثيرون يرغبون في شراء البيت». قالت مايا، ثم كررت كلامها عن وجود مشترٍ مناسب جدا يتعجل شراء بيت الضيعة، وأن رشيد شقيقهما أرسل لدورا توكيلا لتنوب عنه في حال اتفقتا على بيع بيت القلعة. لطالما كانت العلاقة مع أخيها رشيد الذي يصغرها بسبعة أعوام أكثر انسجاما مما هي مع مايا.

غادرت مايا، مخلفة وراءها رائحة عطر ثقيل، بعد أن أخبرتها دورا أنها لم تأخذ قرارا نهائيا بالبيع، ولا تزال في طور التفكير.

لم تنس دورا شجاراتهما في سنوات الطفولة والمراهقة، التي تنتهي غالبا بأن تقول لها مايا: «يا بنت النورية» ولم تكف مايا عن نعتها بهذا الاسم إلا حين قام والدهما بإلحاق عقاب شديد بها ومخاصمتها لشهر كامل؛ ولم ينته غضبه إلا بعد قدومها لتعتذر

وتتعهد بعدم تكرار الأمر. مايا كانت تغار من اهتمام الأب بدورا، وكانت تسمع ما تحكيه الجدة والعمة كريمة عن أمها غزلان.

***

في أواخر عام 1977، عاد حبيب والد دورا من رحلته التي استمرت لأكثر من شهرين ومعه فتاة سمراء بجمال آسر، كان اسمها غزلان. بعد تخرجه من كلية الطب، قرر السفر في رحلة برية يطوف فيها عدة بلدان، غادر قريته الشمالية بينما كانت أمه تبحث عن زوجة مناسبة لابنها الطبيب.

غادر إلى سوريا برا، ومنها إلى تركيا، أمضى في إسطنبول عدة أيام قبل أن يغادرها إلى بلاد أخرى، عبر حدودا وبحارا وأنهارا ومساحات حقول شاسعة، كما لو أنه يبحث عن شيء ما ضاع منه، لكن رحلته انتهت من دون أن يجده. عاوده الإحساس بالسأم، من فكرة الرجوع لبلده وقريته، حيث ينتظر منه أبوه أيضا بدء المشاركة في العمل السياسي.

خلال رحلة العودة، وفي الطريق الحدودي بين تركيا وسوريا، شاهد حبيب غزلان، تعمل مع خالها الكهل في مقهى على الطريق يقدم المشروبات والأطعمة البسيطة للعابرين. بدت له مثل حورية فاتنة، لم تقع عيناه على امراة في مثل جمال واتساع عينيها الوحشيتين، وأهدابها البنية الكثيفة، ولا في روعة تشكيلها الجسدي الذي يشبه التماثيل الإغريقية، نعومة بشرتها الذهبية، وطول شعرها الغجري الذي يتجاوز أردافها، سحرته تلك الضحكة التي بدت بالنسبة له قادمة من عالم الجنيات الساحر.

كانت في السادسة عشر من عمرهـــا، وكـــان في الرابعـــة والعشرين، وكانت حكايتهما أشبه بانخطافة القدر حـــين يُلقـــي حجابا ساترا على الغد، ويمنحُ وهم غواية السعادة التي لا يمكـــن مقاومة لذتها. لم يصدق حبيب خال غزلان حين أخبره أن ابنـــة أخته تصاب بنوبات إغماء حين تزعل، خمن أنه يعرقل هذا الحب كي لا ترحل ابنة أخته وتتركه وحيدا يعمل بمفرده على خدمـــة زبائن الطريق.

غزلان التي يحوم حولها عشرات الرجال، من مختلف الأعمار والمناصب، أُغرمت بيدي حبيب سحرتها أصابعه الطويلة، وعينـــاه العسليتان، كان مختلفا عن كل الرجال الذين عـــبروا مـــن هـــذا الطريق، هو لا يشبه أي أحد، وهي لا تريد فراقه أبدا. لم يكـــن ليقوى على التفريق بينهما إلا القادر القدير.

عادا معا إلى بلدته الجبلية، إلى القرية الهادئة التي يعرف سكانها بعضهم بالاسم، سمع الجيران أن ابن البيك رجع ومعه امرأة. كان البيت الكبير مشيدا على كتف جبل، يتخذ شكل قلعة صغيرة في نهايتها مبنى دائري من طابقين يشبه البرج، كان حبيب يحب هـــذا الجزء من البيت وينوي السكن فيه بعد زواجه.

ذات صباح وضاء بعد عودته من سفره ومعه غزلان يُحكى أن أهل البلدة الذين يسكنون في البيوت المجاورة للقلعة اســـتيقظوا وشاهدوا أجمل فتاة وقع عليها بصرهم، كانت تطل من الشـــباك وضفيرة شعرها الطويل تتدلى إلى جانب كتفها الأيسر، تلك الطلة العابرة بدت لهم أشبه بوهم قبل أن يشيع الخبر بأن حبيبا رجع من السفر برفقة عروسه.

وجدت غزلان نفسها في عالم غريب عنها تماما، البنت البرية التي كبرت بشكل فطري صار لزاما عليها أن تلتزم بقواعد اجتماعية، بعادات وأعراف وتقاليد تجهلها تماما، وفي نفس الوقت ينبغي عليها الالتزام بها من دون جدل. لم يكن وجودها مُرحباً به سوى من وليد شقيق حبيب الأصغر، كان في العشرين من عمره ولم ير فيما فعله أخوه إيذاءً لكرامة العائلة كما قالت أمه. الأب وجيه اعتبر أن زواج ابنه من غزلان نزوة عابرة كان يجب أن تنتهي قبل عودته إلى البلدة، ورغم هذا كان متفائلا بأن يمل ابنه من لعبته حين يعيش معها ويشاهد سلوكها اليومي المرفوض اجتماعيا، الأب المعروف عنه بأنه زير نساء، كان يغادر إلى بيروت كل يوم سبت ليمضي سهراته هناك خمن أن ابنه يشبهه في افتتانه بالحسناوات. أما الأم فقد رأت فيما فعله ابنها الأكبر عارا كبيرا، كان إحساسها بالمرارة مزدوجا من الأب والابن، لذا أمعنت في أذية غزلان كما لو أنها تعاقبها عن كل ما مر بها من آلام بسبب خيانات الزوج، ثم خذلان الابن بعد أن اقترحت عليه اسم أكثر من فتاة ليختار من بينهن عروس المستقبل؛ أما أخته الوحيدة كريمة التي تجاوزت سن الثلاثين ولم تتزوج، كما لم يهبها الله أي مسحة من الجمال، فقد رأت في وجود غزلان ما يذكرها بمحنتها في كل لحظة.

وكان في البيت أيضا مجموعة من الخادمات يمتثلن في كل التفاصيل لأوامر السيدة الكبيرة، وسط هذه الأجواء كان على غزلان أن تحيا، وأن تعتاد نظرات الكراهية والرفض، والتذكير بأنها دخيلة، وأنها دمية سوف يملها صاحبها ويرميها في أقرب وقت، لكن ما خفف عنها أن زوجها لم يتغير أبدا، كان يحكي دوما عن

حياة طويلة تجمعهما، ورغبة في أن تنجب له الصبيان والبنات.

لم يمر وقت طويل حتى زعم أهل حبيب وأقاربه أن غـــزلان ساحرة، تصنع تركيبات وعقاقير من السحر اليهودي؛ وأنها تقـــرأ تعاويذها كل ليلة في أذني حبيب كي يظل ولهانا بها، وأنها ســـقته من شراب يُعمي الفؤاد عن رؤية سواها، فأحضرها معه. قالوا بأنها فتنت حبيبا حين صنعت عجينة وضعتها في جزئها الحميم ثم خبزتها على شكل رغيف، فأكلها المسكين وداخ في غـــرام صـــاحبتها. حكوا بأنهم شاهدوها تنزل إلى الوادي كي تحرق عند النبع جـــزءاً من ضفيرتها التي قرأت عليها التعاويذ، وبيتتها لثلاث ليال تحـــت ضوء القمر.

قالوا وقالوا... ولم تنته الحكايات الـــتي كانـــت تُضـــحك العاشقين في البداية، ثم صارت تنغص معيشتهما مع إحساس غزلان أنها مكروهة، وأن مبيتها في الجزء العلوي من البيت مقصود، كي تكون بعيدة عن ثرثرات العائلة.

لما ظهرت عليها أعراض الوحم، رفضت مغادرة مخـــدعها إلا برفقة حبيب، كان يصطحبها معه إلى بيروت في نزهات برية طويلة تكون بعدها في أحسن حال.

بعد أن وضعت غزلان دورا، قالوا إنها أصـــيبت بـــالجنون، كانت تبكي وتصرخ وتنتحب وتشد شعرها حتى أنهـــا قصـــت ضفيرتها الطويلة في إحدى نوبات اضطرابها؛ زعمت خادمتها أنهـــا خدشت وجه الطفلة الرضيعة، وأن حماتها قررت انتـــزاع الطفلـــة منها، انتقلت دورا إلى غرفة الجد والجدة، أحضروا لها مرضعة، وتم تخصيص خادمة لتشرف على رعايتها.

ازدادت حالة غزلان سوءًا، نحلت جدا بعد أن رفضت الزاد، ثم لاذت بصمت طويل لم ينهه محاولات زوجها مؤاساتها والتخفيف عنها، وكما لو أن الوجع الذي خزنته طوال الأشهر الطويلة منذ وصولها إلى القلعة، آن أوان تفجره.

انشغل حبيب في عمله، صباحا في المستشفى وبعد الظهر في عيادته، كان يغيب عنها ساعات طويلة تظل حبيسة غرفتها، ولو جربت مغادرة البرج لتنضم إلى العائلة، ترميها الأم والأخت بنظرات وعبارات تؤكد على أنها ستظل منبوذة بينهم.

لم يعرف حبيب ماذا يفعل لترجع غزلان حبيبته كما شاهدها أول مرة مثل شمس النهار لا يمكن إلا أن تترك أثرها على أي عابر، كل ما كانت تقوله إنها تود الرحيل هي وابنتها عن القلعة، حبيب لم يكن يعارضها، يهز رأسه بالإيجاب قائلا: «حين تكونين بخير»، وكلما سمعت هذه العبارة تزداد غضبا وهي تؤكد له أنها بمرور كل يوم يزحف إليها الموت.

لم يصدقها حبيب، خمن أنها تهذي، أو تمارس ضغوطا عليه لتبتعد عن البيت الكبير، خمن أيضا أن ابنته دورا ستكون أكثر أمانا في رعاية أمه منها مع غزلان. لم ينجرح حبه لها رغم مرضها، لكنه كان منشطرا بين طموحه لتحقيق مكانة في مهنته، وبين مرض زوجته وضغوط عائلته.

قامت حماتها بنقل أغراضها إلى الطابق الأرضي في الجزء المسمى «القبو» بحجة أمانها هناك، مخافة أن تقوم بإلقاء نفسها من البرج، كما لن تتركها في الأدوار العليا حيث يأتي أهالي البلدة لزيارتهم ولا يمكن أن يشاهدوا غزلان على هذه الحال. اقتنع حبيب

بوجهة نظر أمه، أو ربما لم يتمكن من مواجهتها بقوة.

في دهاليز القبو البارد، حيث تتجاور غرفتها الجديدة مع غرفة المؤن يتم تخزين زجاجات النبيذ صارت غزلان تتسلل إلى هنـــاك لتأخذ قارورة تلو أخرى.

في إحدى نوبات غضبها، بعد أن رفضت حماتها أن تسمح لها بمشاهدة دورا لأن الصغيرة نائمة، قامت غزلان بمحاولة الانتحـــار عبر قطع شريان يدها بقطعة زجاج مكســـورة؛ لكنـــها نجـــت بأعجوبة.

أشار أحد الأصدقاء على حبيب بأن يصطحبها إلى طبيـــب نفسي، وهكذا بدأت رحلة علاج طويلة، ظهرت عليهـــا بـــوادر التحسن بعد أن أوضح الطبيب له بأنها تشكو من اكتئاب حـــاد يترافق مع الشعور بالنبذ وفقدان القيمة الذاتية، وكان من نتيجـــة زيارة الطبيب أن حبيبا منح وقتا أطول لزوجته وابنته، صارت دورا تُمضي ساعات طوال في حضن أمها. عادت الإشراقة إلى وجـــه غزلان وبدأت تستعيد عافيتها الجسدية وتوازنها النفســـي حـــين أيقنت من حب زوجها، ومن قدرتها على الوقوف من جديد لأنها لا تود أن تسبب له مزيدا من الألم.

ذات مرة، في أحد مواعيد جلسات العلاج لم يتمكن حبيب من مرافقتها، ذهبت غزلان إلى بيروت برفقة شقيقه وليد وإحدى الخادمات؛ خلال رحلة العودة انقلبت بهم السيارة وســـقطت في الوادي و لم ينج أحد.

بعد ذاك الحادث المشؤوم، كره حبيب القلعة، بل إنه لم يعد يطيق البلدة كلها، فقد زوجته وأخيه في ساعة واحدة. أخبر والده

بأنه يود الرحيل، الهجرة إلى مكان بعيد ليبدأ حيث لا ذكريات تطارده، لكن الأب طلب منه أن يهاجروا جميعا، إذ ليس بمقدوره بعد خسارة وليد أن يفترق عنه. هكذا أُغلقت أبواب القلعة، وكانت وجهتهم أستراليا حيث أقارب لهم هناك.

حين كانت دورا تسأل حبيب عن أمها، يقول: «بأن الموت خطفها لأنها كثيرة على الحياة.» كان ينظر إلى ملامح دورا يمسح وجهها بيديه متمتما: «الحمد لله أنك لم ترثي نصف جمالها، الجمال الفائض لعنة لأنه يقترن بسوء الحظ.» تغيم عيناه، يمسح شعره الأشيب وكأنه يرجع من ماض بعيد قبل أن ينهي حديثه بجملة: «كنت غرا فلم أتمكن من حمايتها كما يليق بها.»

14

عبر الطريق الجبلي المتعرج، الذي يُطل على الوديان من الجانب الأيمن، وعلى الجبل المخضر بشجر كثيف من الجانب الأيسر؛ مضت بهن سيارة مرسيدس فاخرة نحو القرية، أشعة الشمس التي تخترق النافذة أزعجت دورا وجعلتها تتصبب عرقا رغم برودة المكيف، بينما أختها مايا لم يبد عليها أي تأثر، ملامحها صارمة محددة الهدف نحو المهمة التي جئن من أجلها، بينما لوسي تجلس بجانب السائق منشغلة في العبث بهاتفها المحمول. تأملت دورا جُرفا شديد الانحدار يؤدي إلى واد ترتفع فيه أحراش صنوبر وسرو سامقة.

بيت القلعة – ببرجه العالي – بدا مهيبا جدا حين وصلن إليه، مثل بيوت الحكايات والأساطير التي تخفي خلف جدرانها مآسٍ وعبر، مسرات وأوجاع غدت جزءا من حجارة البيت الكبير المستقل، والبعيد عن سائر البيوت. بيت جمع من بناه بين شكل القصر والقلعة، ليأخذ من القصور اتساعها، ومن القلاع بناءها على هضبة تجعله مرئيا عبر مسافة بعيدة لكل قادم إلى القرية.

دورا لعب بها دوارٌ شديد وهي تنظر إلى النافذة المقنطرة التي كانت تطل منها أمها غزلان في يوم ما، انقبض قلبها وهي تستعيد ما سمعته من شذرات حكاية عشق أمها وأبيها، غمرتها وحشة شديدة و لم ترغب في الدخول إلى عتبة البيت، ظلت تقف خارجا

رافضة أن تخطو خطوة للأمام، بينما مايا تحضها على الدخول، ولما ظلت رافضة أن تتحرك واختارت الجلوس أمام الردهة الرئيسية، أومأت مايا للخادمة لوسي أن تتبعها إلى الداخل.

تمنت دورا أن تتمكن من الدخول إلى البيت، الصعود إلى أعلى، إلى الغرفة التي سكنت بها أمها. رغبت أن تتسلل إلى القبو كي تشاهد أين كانت تجلس غزلان، لكنها لم تقو على فعل كل هذا. بدت لها أن هذه هي المرة الأولى والأخيرة التي ستأتي بها إلى هذا البيت الملعون، مدركة السبب في رفض والدها أن يصحبهم إلى هذا البيت عندما كانوا يأتون في أشهر الصيف إلى لبنان؛ أحست بالامتنان لأنه لم يفعل.

حبيب لم يتمكن من مواجهة ذاكرته، من استعادة مشاهد ذكريات قصة حبه ومعاناته التي عاشها في أرجائه، لم يتمكن في حياته من بيع بيت أجداده والتخلص منه، كما لم يتمكن من مواجهة ماضيه واستئصال ألمه. ترك متابعة شئون بيت القلعة لأخته كريمة، التي انحصر دورها في إعطاء مفتاحه لسمسار عقارات استفاد طوال هذه الأعوام من تأجيره لأغراض سينمائية، يأتي إليه ممثلون وممثلات غرباء عنه، يتجولون في أرجائه ويؤدون مشاهد درامية ضمن فيلم أو مسلسل، من دون أن يدركوا أن جدران هذا البيت اختزلت حكاية درامية جارحة، تفوق الحكايات التي يقومون بتمثيلها.

مايا علت قسمات وجهها ابتسامة منتصرة بعد جولتها في كل أرجاء البيت، تنفست الصعداء وكأنه انزاح عن صدرها عبء ثقيل، غادرته وهي تقول إنه في حالة جيدة جدا، مسهبة في امتداح

رجاحة عقل العمة كريمة التي حافظت عليه طوال هذه الأعـــوام وعملت على ترميمه وإصلاحه كلما اقتضى الأمر، دورا اكتفـــت بهزة من رأسها من دون تعقيب بأي كلمة، كأنها تؤدي دورا ثانويا في مسرحية يواجه أبطالها الجمهور لأول مرة.

جاءت إحدى الجارات العجائز مسرعة وهي ترى حفيـــدتي البيك على وشك الصعود إلى سيارة التاكسي. نقلت الجارة نظراتها بين مايا ودورا وهي تسأل: «مين بنت غزلان؟» عرفت دورا عن نفسها، فسلمت عليها الجارة بود وهي تقول لها بمكر: «أنـــت لا تشبهين أمك.»

اكتفت دورا بابتسامة شاحبة قبل أن تتدخل أختها بالحوار، لتحوله في اتجاه توضيح رغبتهما في بيع البيت، ثم طلبت من الجارة أن تدلهما على بيت المختار كي يساعدهما على إيجاد مشترٍ للبيت.

في طريق العودة فكرت دورا أن الجينات التي حملتـــها مـــن غزلان جعلت لديها رغبة دائمة في الترحال، وأن ما حملتـــه مـــن حبيب هو عدم شراهتها نحو المال، وخوفها المرعب من أي شكل من أشكال الثراء الفاحش، في قرارة نفسها كان الغنى المثير للحسد يقترن لديها بتعاسة إنسانية كبرى تجلب كل الشرور والأذى.

15

حين فتحت دورا عينيها، أحست بثقل كبير في رأسها وجسدها، وبجفاف شديد في شفتيها، أبصرت وجه امرأتين لم تتمكن من تمييز ملامحهما فورا، إلا حين قالت هيام:

- «حمدلله على السلامة.»
- «عطشانة» تمتمت دورا بإنهاك شديد.

ردت إيمان، وهي تبلل قطعة من الشاش الأبيض بقطرات من الماء وتمسح شفتي دورا:

«حمدًا لله على سلامتك الماء ممنوع عنك الآن، سأبلل شفتيك فقط.»

بدأت دورا تسترجع ما حدث، كان آخر ما تذكره أنها رنت الجرس عدة مرات عند شقة هيام، قبل أن تفتح لها جارتها الباب. ألم شديد في أسفل بطنها، وقيء مستمر دفعها أن تستنجد بجارتها كي تتصل بالدكتور يوسف، بعد أن حاولت مهاتفته أكثر من مرة لكنها لم تتلق رداً.

تذكرت وجه الطبيب القلق، نظراته الحانية، وكلماته الودودة وهو يقول لها: «ما تخافي.. ما في شي، احتمال الزائدة الدودية، علينا أن نتصل بالإسعاف حالا»، ثم مددها على الأريكة، وطلب من هيام أن تُحضر له كيسا من الثلج، وضعه على بطن دورا لتخفيف الألم. بعدها ذهبوا جميعا إلى مستشفى الجامعة الأمريكية،

وهناك قرر الطبيب الذي عاينها أن يُجري لها عمليـــة استئصـــال للزائدة في الحال.

- سوف تبقين هنا يومين، وسأبقى معك أنا ولوسي لقـــد أرسلتها لتحضر بعض الأغراض.

قالت هيام جملتها هذه، ثم التفتت نحو إيمان تطلـــب منـــها المغادرة لتذهب لرعاية بناتها ومتابعة شئون المقهى.

«سأعود غدا صباحا.» تمتمت إيمان بما يشبه الاعتذار.

كانت دورا تحس بمزيج من الخجل والامتنان لجارتهـــا الـــتي بالكاد تعرفها، ثم تذكرت حين التفتت إلى الجانب الأيمن وشاهدت الهاتف المحمول قرب سريرها أن أختها مايا في لبنان، ولا بـــد أن تكون اتصلت بها أكثر من مرة.

سألت هيام:

- هل اتصل أحد بـــي؟

ردت هيام مع ابتسامة:

- نعم، فتاة تدعى فرح، ولم أخبرها أنك مريضة، قلت لها إنك نسيت الهاتف في بيتي، وحين عاودت الاتصـــال لم أرد.

- هي فقط؟، ألم تتصل مايا؟

- لا، هي فقط.

خلال أيام تعافيها، عرفت دورا نوعا من الـــدفء الحمـــيم، لم تألفه من الغرباء. اعتادت أن تقوم بأمورها بنفسها، ألا تنتظر عطـــاء من أحد، لكن هيام منحتها اهتماما لم تتوقعه. طهت لها أنواعا مختلفة من الحساء المسموح لها بتناوله، أشرفت على الاهتمام بثيابها، وأعطت

الأوامر للوسي حول نظافة البيت وشراء الحاجيات، جلست مع دورا لتبدد عنها ملل البقاء في البيت وحدها وهي مريضة، وفي أثناء ذلك كانت تتلقى الاتصالات من الزبائن الذين يرغبون في قراءة طالعهم، وتعطيهم المواعيد حسب ما يناسبها من الأوقات.

لما علمت فرح بمرض دورا، جاءت لزيارتها وهي تحمل باقة من الورد الأحمر الذي فاحت رائحته الخلابة حين وضعته لوسي في مزهرية شفافة. اعتادت هي أيضا القدوم للجلوس مع دورا لساعات بين يوم وآخر، والمشاركة في القيام ببعض المهمات اليومية الصغيرة، مثل: شراء الخضروات، أو مساعدة هيام في تجهيز الطعام. كانت دورا تبتهج بوجود فرح، وسماعها تحكي خبريات عن المخيم، ونسائه ورجاله، والأحداث الغريبة والطرائف التي تقع كل يوم خلال قيامها بتعليم الأطفال، تحكي عن إدراك بعض الأهل لأهمية ما تقوم به، وكيف يبحثون عنها في حال تأخرت عن موعد الدرس اليومي، وكيف أن آخرين يدفعون أولادهم للفرار من الدرس كي يمارسوا أي عمل يحصلون منه على مال.

وحين تنتهي القصص الصغيرة التي تحكيها فرح، تطلب منها دورا أن تفتح جهاز الكمبيوتر وتختار فيلما كي تشاهداه سويا، في بعض الأحيان قبل نهاية الفيلم تنسحب دورا إلى فراشها عند إحساسها بالتعب، تطلب من فرح أن تكون على سجيتها، أن تستحم وتأكل، وتغسل ثيابها، وتجفف شعرها وتعتني بنفسها جيداً قبل أن تغادر.

لم تعرف دورا لِمَ امتلكت فرح تأثيرا كبيرا عليها، كانت تود حماية تلك الفتاة من أي آلام محتملة، لكنها تقاوم هذا الشعور المغوي.

تذكر أنها كانت في مثل عمر فرح حين التقت مع آزاد، كان يعمل معها في نفس المؤسسة، جاء إلى أستراليا مع عائلته عقب مغادرة والده إيران إثر الانقلاب على الشاه محمد رضا بهلوي. كان أبوه مهندسًا معماريًا انتمى في شبابه للحزب الشيوعي، وعرف أن وجوده في طهران لم يعد نافعا في تلك السنوات، لذا فضل أن يغادر بلده بهدوء، قبل حصول ما يجبره على المغادرة قسراً في ظلام الليل.

ظلت دورا تحب آزاد منذ لقائهما الأول، عرفت أن هذا النوع من الحب لا يأتي في الحياة إلا مرة واحدة، لذا كان كلاهما متمسكا بالآخر. السنوات التي مرت صقلت علاقتهما أكثر، عملا وسافرا معا، وتشاركا العديد من المخاطر والأوقات الحميمة، ما نشأ بينهما صار جزءاً من تاريخ كل منهما.

في اليوم الذي أكملت فيه دورا عامها الرابع والثلاثين، كانا يحتفلان بعيد ميلادها وحدهما؛ عبرت له عن رغبتها بوضوح في إنجاب طفلٍ. ظن آزاد في البداية أنها تمزح، هي تُدرك جيدًا موقفه الوجودي من فكرة تكوين أسرة، كان يقول لها دائماً: «لن أنجب كائنا ليمنحني التعاسة»، لطالما وافقته دورا على فكرته، هي أيضا من كثرة تعاملها مع الأطفال الذين أعطبت الحياة طفولتهم، أصبحت مثله خائفة أن تُنجب طفلا ولا تتمكن من تربيته بالأسلوب الذي تريده لأي سبب خارج عن إرادتها؛ لكن كل هذه المخاوف والهواجس تلاشت فجأة ليحل مكانها رغبة شديدة في الأمومة، في احتضان طفل وتقبيله، واللعب معه.

كرر آزاد ما قاله لها مرارا، لكن بأسلوب حاسمٍ هذه المرة، قال لها: «هل تظنين أننا نربي أولادنا؟ نحن لا نتمكن من تشكيل

حياتهم كما نتخيل، المجتمع يتدخل بعلاقتنا مع أبنائنا، العالم المحيط بنا بكل ما فيه من اقتصاد وسياسة يتدخل، والأبناء أنفسهم مَـــن يضمن ألا يسببوا لنا العذاب، والألم والمعاناة؟»

ثم راح يذكرها بحالات لأبناء مراهقين جذبتهم حياة التشرد بلا سبب واضح، سببوا المعاناة لذويهم فقط لأنهم انـــدفعوا وراء تجربة المغامرة، ولم يرجعوا منها أبدا.

«لا أريد أن أكون ضحية مراهق أحمق، يجبرني علـــى تغـــيير حياتي من أجل حماقاته، ويُسبب لي حُزنا لا يُنسى» قال لها بحسم.

«أنتَ تعرف أن هذا الكلام غير دقيق، وأنه لا توجد حالـــة تشبه أخرى.»

«ليس هناك ما يضمن أنني لن أكون ضمن الحـــالات الـــتي ستعاني.»

«أنت أناني.»

غادرت دورا بعد أن طلبت منه إنهاء علاقتهما عند هذا الحد، لأنها تريد الزواج والإنجاب، لكن علاقتهما لم تنته وظلت تُـــراوح بين الحب والصداقة، كلاهما كان يجد صعوبة في انتزاع الآخر من حياته.

16

ذات مساء خريفي، كانت دورا تعبر الشارع، ماضية نحو بيتها حين باغتها لحن تعرفه جيدا، موسيقى أغنية «la soledad» لبينك مارتيني، تتسرب من شرفات «بودا بار»، المفتوحة نوافذه على الشارع. حزت عبارات الأغنية ولحنها في قلبها، للحد الذي دفعها أن تغير اتجاهها وتصعد سلالم البار بخفة، كأنها على موعدٍ مجهولٍ.

في الداخل بدا المكان أكثر رحابة مما يبدو عليه من خارجه، يمتد على مساحة فسيحة لطابق كامل مع استخدام أنيق للشرفات التي يزدحم فيها المدخنون. في الردهة الواسعة بعد المدخل يجلس تمثال بوذا الضخم في الوسط بهدوء، يتسلل إيحاء بالانفصال عن الزمن والمكان مع نسمات خفيفة تداعب الستائر الأرجوانية. تنعكس الاضاءة الخافتة من اللون الكهرماني على الطاولات المستديرة من خشب الماهوجني البني المحمر وعلى أرائك في الزوايا ذات أذرع خشبية من الطراز ذاته، بدت لها نقوش الخشب وتعرقاته عاكسة لأشكال متموجة، أو على شكل قطرات المطر، أما نقوش السقف فبدت تشبه الفسيفساء البرتغالية المستوحاة من طُرز القرن الثامن عشر.

لفت نظر دورا أن اللوحات الفنية التي تزين الحوائط، ترتحل بالناظر لتذكره بالنقوش الصينية والهندية، وفي الزوايا تماثيل خشبية

لآلهة هندوسية وبوذية مزخرفة من اللون الأحمر والأصفر الزعفراني والأخضر، وأخرى صغيرة لملائكة من البورسلين تورق أجنحتها البيضاء والموشاة بخطوط ذهبية، وسط ميزان فضي صغير، يمتد في وسطه جسد ملاك يكتفي بأن يفرد جناحيه ويمد رأسه باستسلام أبدي. بدا لها الديكور أكثر فخامة وغنى ليحمل اسم «بودا بار»، لكن في النتيجة أحست أن المكان رغم طرازه الكلاسيكي القديم، تبدو أعمار رواده متباينة بشكل لافت. الشبان والشابات الصغار ينتشرون في الشرفات ويجلسون على الأرائك وإلى طاولات صغيرة أكثر عصرية. أما من لهم هيئة رجال الأعمال، فيتجمّعون حول الطاولات الكبيرة المستديرة.

اختارت دورا الجلوس إلى طاولة صغيرة، في زاوية شبه معتمة، لكنها من مكانها ذاك كان بإمكانها النظر جانبيا إلى تمثال بوذا الذهبي المزين بعقد من الورد الأحمر حول رقبته، وإلى النافورة الصناعية الصغيرة التي تتدفق مياهها بالقرب منه.

كان قد مضى أكثر من ثلاثة أشهر على انتقالها للحي، في هذه الليلة التقت دورا للمرة الثانية مع مروان، شاهدته جالسا في ركن منزو وفي عينيه حزن زاده الشراب التماعا. قال لها بأنها تشبه الممثلة الإسبانية بينيلوبي كروز، تلك كانت جملته الأولى لها وهي تجلس وحدها تحتسي نبيذا ورديا. كان وحده أيضا، تبادلا نظرات وابتسامات ودودة قبل أن يقترب ويطلب منها أن يجلسا معاً.

شرب عدة كؤوس من البيرة، تبادل معها في البداية حوارات عامة، تحدث عن مهنته، وعن حبه لفن العمارة والرسم، لفت

نظرها تداخل حواراته التي تكشف عن تنوع ثقافته، أخبرها، وهو يضحك أنه تمنى أن يكون رساما للوجوه في أحد شوارع باريس، لكنه يحس بالخجل من أن يُلقي له الناس بالمال بعد أن ينتهي من الرسم. أخبرته عن عودتها إلى بيروت من وقت قريب، تحدثت بشكل موجز عن عملها، وأسفارها الكثيرة. سألها إن كانت تعاني من الألم وهي تقترب إلى هذا الحد من معاناة البشر، السؤال الذي لم تتوقع أن تتلقاه في هذا المكان، وفي تلك الليلة.

صمتت قليلا قبل أن تقول:

- .بمرور الوقت تكتشف أن المعاناة الانسانية من البديهيات التي تتجاور مع الحياة، بشكل مُحير، فلا يمكن الفرار منها، كل ما يمكن فعله هو أن نحيدها قليلا كي نواصل العيش مع بعض النسيان.

وافق على عبارتها بهزة خفيفة من رأسه معلقا بأن الألم يمكنه التخفي في أكثر من وجه.

ارتفعت موسيقى صاخبة، أنست كل واحد منهما حكايته الأصلية، رقصا معا باندفاع حتى شعرا بالإنهاك، كأنهما ابنا اللحظة الآنية فقط، ثم في نهاية السهرة، وهما يسيران معا في الشارع خارج «بودا بار»، لاحظت دورا أنه تحدث كثيرا عن أمه، وعن زوجته الراحلة؛ ربط كل تفصيل في حياته بإحداهما. كان مروان يصغرها بسبعة أعوام، لكنها لم تحس بفارق الأعوام السبعة، بقدر ما أحست بأن الحزن الذي يحمله في عينيه يجعل ملامحه أكثر جاذبية.

في اليوم التالي للقائهما، وفي الصباح الباكر، سمعت دورا رنين جرس الباب، حين فتحته، وجدت مروان يقف أمامها بكامل بهائه

وأناقته، يرتدي قميصا أبيض وبنطالا من الجينـــز الأزرق، عينـــاه العسليتان تلمعان، وشعره البني رطب قليلا. شاهدت في يده كيس صغير تفوح منه رائحة مناقيش الزعتر والجبنة، قال لها إنه أحضـــر طعام الفطور كي يتناولاه معا قبل ذهابه إلى لعمل.

غمر دورا احساس بأن هذا الشاب يقتحم حياتها بســـرعة. ردت عليه بالسؤال عن سبب قدومه من دون أن يُهاتفها، قالت إن طرقه بابها عند الصباح غير مقبول لهـــا. ظـــل صـــامتا ثم هـــم بالانسحاب سريعا، لكنه عبر اعتذار لطيف وابتسامة حقيقية تمكن من احتواء انفعالها السريع، مبررا أن وصوله إلى عتبة بابها حـــدث باندفاع مباغت لم يستغرق منه وقتا للتفكير، لقد أحس برغبة قوية في لقائها والحديث معها، ولو فكر لدقائق كان تصرف بشـــكل مختلف، هو يعرف أن تصرفه غريب، لكن نموذج التواصل العصري بين البشر لا يروق له، يحب اللقاءات المفاجئة أكثر من تلك المرتبة عبر مواعيد مسبقة عبر الهاتف، ورسائل الواتساب.

«ربما هذا أيضا ما كان يفعله مع زوجته الراحلة» فكـــرت دورا، تمنت معرفة أشياء كثيرة عنها، هل مازالت صـــورها تمـــلأ البيت، وذاكرته وحياته؟ لم تعرف لِمَ يُربكها دخول مروان حياتها؛ تذكرت لمسة يده على يدها أمس وهما يرقصان، لمســـات خافتـــة غريبة، يد برونزية صلبة ليس فيها خشونة ولا نعومة، بل دفء هي في حاجة إليه.

لطالما أحست خلال علاقتها مع آزاد أن جسدها يشبه مكعبًا من تلك المكعبات التي يبني منها الأطفال بيوتا، لكنه مكعب مُفرغ من الداخل، لذا ما أن تلاصق مع مكعب آخر، احتوى فراغه حتى

تداخلا بسهولة، وحين توجب عليها نزع جسدها، كان عليها الدخول بين الجلد واللحم للمكعبين المتلاصقين. هكذا افترقت عن آزاد وفي داخلها إحساس المقامر الذي أنفق كل ما لديه من مال، هي أنفقت سنوات عمرها في هوى بلا طائل، مع رجل يرفض وجود أي قيد في حياته.

لكن هل من المجدي التفكير في حياتها الماضية؟ هل من المجدي التفكير في البحر، أو التاريخ، أو الأسماء، أو في لحظات النشوة الكثيرة التي عرفتها مع آزاد. إنها أشياء تقودها إلى الله. لكن التفاصيل المرهقة التي عليها التفكير بها وتستنفذها ملقاة مثل الحجارة على الأرض، وهي تسير حافية، وعليها أن تمضي بعيداً، كي تواصل فرارها من الماضي كله. في لحظة ما لم تعد تريد أن يعود آزاد إلى حياتها، أن يدخل إلى مطبخها ليُعد الطعام، أن يظل برفقتها لأيام ثم يغادر ويختفي لأسابيع قبل ظهوره من جديد، ويكون عليها أن تعتاد غيابه. تعِبت من كل هذا الدوران. لذا قررت الرحيل حين لم يعد بمقدورها الاستمرار في لعبة الأستغماية التي كان يتحكم بها آزاد.

17

أنا ومروان.. أم مروان وأنا، لا أعرف إن كنا نختلف أم نتشابه! لكن ثمة شيئا غريبا يجمعني به. شيء يجعلني في اللحظات التي نكون فيها معا مفصولة عن الماضي والمستقبل، إنها اللحظة الآنية فقط. هذا ما لم أعرفه في علاقتي مع آزاد، دائما كان هناك غد وخطط ومشاريع وتفاصيل شتى. مع مروان لا يوجد كل هذا، ربما بسبب طبيعة اللقاء الأول بيننا، في «بودا بار» حين أحسسنا أننا منفصلين عن الماضي، لنكون أبناء الآن فقط.

رغم فراقي عن آزاد أحس أني أخونه في الاقتراب من مروان، ماذا لو عاد آزاد الآن؟ ماذا لو قرر أن نواصل حياتنا معا؟ لكنني لا أستطيع العيش على هذا الافتراض الذي لم يحصل، مروان يمنحني أشياء مفقودة من عالمي في حياتي البيروتية الجديدة، هو قال إنني أفعل ذات الشيء في حياته بعد رحيل زوجته، ومن قبلها أمه. قال لي إنهما تتحدان أحيانا وأنه يراهما في أحلامه، حكيت له عن أمي غزلان، قال بأن فقداني لأمي منذ الطفولة جعلني أحس بمقدار آلامه، حكيت له أيضا عن آزاد، عن الحب الذي كان مزدهرا، ثم أصبح مألوفا كجزء محتوم من حياتنا اليومية، ثم صار جزءاً من ماضينا، وكيف انتهى.

بكى مروان حين حكيت له عن الطفل الذي أردت إنجابه و لم يوافقني آزاد. أخبرني أنه لطالما حلم أن يكون لديه طفل من جمانة،

وأنه ربما سيكون أقل تعاسة لو تركت له قبل أن ترحل طفلا صغيرا يرى فيه ملامحها، أن يحمل الطفل بيديه، يهدهده، ينيمه في سريره.

في حكايات مروان أحس أنه أمومي أكثر مني، لم أتخيل أن أقوم بهذه التفاصيل، وكأنه حين وصف ما يحتاجه الطفل من رعاية، وضعني في مواجهة مع نفسي. تنبهت أني لم أفكر بكل هذه الأشياء، ربما آزاد فكر أفضل مني، ورأى أن كلينا لا يستطيع القيام بمسؤولية كاملة نحو طفل رضيع، أو رأى أنني لا أنفع كي أكون أما، لا أدري.

آزاد لم يتغير، أنا التي تغيرت منذ اللحظة التي تحولت عنه، وسكنني هوس إنجاب طفل من رحمي، منذ صرت أتحرق شوقًا لأن ينز الحليب من حلمتي ثديي. لم أكن أريد طفلا كي أرى فيه ملامح آزاد، بل كي أشعر معه بأمومتي الطبيعية، ليس عبر رعاية الأطفال المعذبين الذين ألتقي بهم، وينبغي علي إنقاذهم، لا أريد البقاء وحيدة مثل عمتي كريمة، والموت وحدي من دون أن أمتلك حق العتاب على أحد بأنه لم يسأل عني.

الآن بعد مرور شهرين على تعارفي أنا ومروان لا أستطيع تذكر كيف توطدت علاقتنا، وكيف تشعبت مساراتها، لأذهب معه الى بيت عائلته في الجبل، لأستقبله في بيتي، لأطلب منه مرافقتي في بعض مهمات عملي؛ لأقترح عليه أن نمارس الركض مرتين في الأسبوع على كورنيش البحر في الصباح الباكر قبل أن يذهب كل منا إلى عمله. كنت أصعد خلفه على الموتوسيكل، أضع ذراعي حول كتفيه، وأصرخ ضاحكة عند كل منعطف، يركن مروان

الموتوسيكل إلى جانب الرصيف، ثم نبدأ بالركض من شاطئ الروشة إلى المنارة، ثم بعد أن ننتهي من الركض نتناول طعام إفطارنا معا، مناقيش بالجبنة مع عصير البرتقال.

أما في أمسيات أيام الآحاد فقد كنا نمضيها سويا جائلين في «شارع مونو» حيث الحانات والملاهى والمطاعم تتوزع على جانبي الرصيف الضيق، وتشكل معا مختلف أنواع الديكورات من الطراز العربى حيث الأرائك والمساند والسجاد، إلى العصري والحداثي، أمريكي، فرنسى، إيطالى، هذا الشارع مقصود من الغرباء ومن جيل شابات وشباب يبحثون عن حريتهمْ وعن أماكن للرقص وسماع موسيقى متنوعة حتى طلوع الفجر، في هذا الشارع أيضا كنا نجول معًا لساعات.

يقول لي مروان إن «مونو» شارع ليلى بامتياز، لا يمكن اكتشافه إلا ليلا، أخبره بأني أحب السير فيه صباحا ورؤية السيدات العجائز وهن يحتسين القهوة في الشرفات الصغيرة حيث تتدلى الورود من أصص فخارية. كنت أستمتع بإعادة اكتشاف بيروت في الليل، وكان مروان رفيقي، ودليلي في مدينة أعترف أني لا أعرفها بشكل كاف رغم قرار العودة إليها.

أما آزاد، فهو ليس مجرد حكاية. إنه سنوات طويلة، أشياء وتفاصيل، وأماكن، وذكريات، أسفار، وقصور وقلاع، بحار وأنهار ومقاه شهدت حكايتنا. السيدة التي سكنا بيتها في إشبيلية، قالت إننا نتشابه.. عيناي في عتمة سوادهما تشبهان عينيه، أمسكت كفي، ثم أخذت كفه وقالت إننا سنظل معًا كما نحن، يومها ضحكتُ وقلت لها بدهشة: «كما نحن!»؛ ربما فرحتُ بالكلمة

حينها و لم أعرف أن هذه الكلمة تُنبيء أيضًا عن النهاية. أما حين أخذني معه الى قرية «كاندوفان» في إيران ورأيت البيوت المعلقة بين الصخور، أحسست أنه الرجل الوحيد في هذه الحياة، الذي أريد أن أكمل عمري معه. أمور كثيرة جمعت بيننا وتفصيل واحد فرقنا.

هل يمكن لتفصيل واحد أن يفرق بين اثنين؟ رغبة مختلفة لا يشترك بها كلاهما.. مجازات مجازات.. الحياة كلها مجازات، كما يرى «كونديرا»، لطالما قال لي مروان هذه العبارة.. لا... لا... آزاد من قالها لي قبلاً.

آزاد من قال لي إن الحياة مجاز كبير، وإننا نختصرها في نقاط، وإن الحب الكبير مثل الفن العظيم ليس له نهاية، إنه لحظة عظمة مقتطعة من الأبدية، وفي اللحظة التي يعزف فيها على البُزُق، كنت أرتحل معه آلاف السنين القديمة، وأرى نفسي راقصة في قصر عتيق، في معبد، وأننا عاشقان لاهيان، يختبئان وراء صخرة، هاربان من مكان إلى مكان، وما بين الحقيقة والوهم ظللنا نهرب، ظللنا خائفين من الواقع نبحث عما يبعدنا عنه في حكايا الآخرين، وفي قصصهم المؤلمة وفي انتحابهم وهروبهم وادمانهم، كنا نظن أننا نساعدهم، ربما ساعدناهم، لكننا مازلنا عاجزين عن مساعدة أنفسنا، نحن نجلس على الضفاف، ضفاف الحياة والعمر.

آزاد يخاف أن يتورط بالحياة لأنه يجلس عند حافة النهر لا يريد التورط بالغوص في الماء، ربما كنت مثله لأني وافقته طوال هذه الأعوام. نحن عابرون للحياة للماضي للحاضر، عابرون كي لا نتورط، نمشي بموازاة النهر ولا نريد السباحة داخله.

حكيت لدكتور يوسف عن رؤيـــتي لآزاد ولنفســـي، وأن هروبنا نحو العمل، الذي ظننا أننا نجد أنفسنا فيه لم يكن أكثر من محاولة للنجاة من التورط مع الحياة، التورط مع أسرة. لم يـــوافقني على رؤيتي، قال لي إن الزواج علاقة لا تناسب الجميع، ولو عاد به الزمن لكان مضى في خيارات أخرى، هو الراسخ في بيروت المدينة التي أحبها وعاش فيها كل حياته قال لي في لحظة ما إنه ربما لو لم يكن تزوج واستقر وأنجب ابنه أسامة لمضى رحالا من بلد إلى بلد يتفرج على العالم، كم نحن متناقضون! ولا يمكننا دائما معرفة مـــا نريد في قاع ذواتنا.

هل أردت طفلا كي أنجو من الوحدة؟ كي لا أطرق بـــاب الجيران في الثانية عشر ليلا كما فعلت هيام جارتي؟ أحس برأسي يكاد ينفجر من التفكير، آزاد، ومروان، عملي، المخـــيم، بيـــت القلعة، أبـــي، أمي، مايا، رشيد، كلهم يظهرون لي ويطرحـــون علي رؤاهم للحياة.

رشيد الذي اختار الاستقرار منذ أن أتم الحادية والعشرين من عمره، ارتبط بالبنت التي أحبها، وأنجبا بسرعة، كنت عمة قبل أن أتم الثلاثين من عمري، رشيد يبدو سعيدا أكثر مني أنا ومايا. مايا خلال عملها في عرض الأزياء تبدو حائرة مثلي بين أن تستمر في عملها وبين أن يكون لها خيارات أخرى، هي لا تريد أن تنجـــب طفلا كي لا يفسد قوامها، ولا تريد أن تعيش مع رجل كي لا تعد له الفطور في الصباح، ولا تضطر لغسل الأطباق، هذا ما قالته لي.

أنا في قاع ذاتي أردت أن يكون لي أسرة كبيرة، أن أكـــون محاطة بالأبناء والبنات، بالأشقاء والشقيقات، بالعمات والخـــالات

وأبنائهم وبناتهم، أردت كيانا عائليا كبيرا ومحبا، لكن كل هذا غير موجود إلا في داخلي، وفي النتيجة أنا أحيا وحدي، وأحاول التعويض بالصداقة عن الأهل والعائلة الكبيرة.

وفي هذه الليلة أنا خائفة جدا، ووحيدة جدا، وكل من أعرفهم يبدون بعيدين وعابرين أكثر مني، أفكر أن أطرق باب دكتور يوسف وأقول له إنني أحتاج للنوم، دعني أنام في بيتك الهادئ في غرفة الضيوف التي استقبلتني بها يوم أنقذتني من انفجار الزائدة الدودية.

وحده دكتور يوسف يبدو لي ثابتا في زمن العابرين، راسخا في هذه المدينة الضاحكة، بيروت التي تضحك باستمرار، عدت الى بيروت لأني أراها تضحك في كل الأحوال، حزينة تضحك، محاربة تضحك، كئيبة تضحك... لِمَ أحببت بيروت بين كل المدن! ربما من كثرة الكلام الذي تحدث به أبي عنها، كان يحكي لي مغامراته الكثيرة قبل أن يعرف غزلان وبعدها. بيروت قبل أن يعرف غزلان كانت الليل والسهر وبارات عين المريسة، وبعد زواجه بها، صار لهما مشاويرهما المشتركة، سهراتهما على شاطئ البحر، والحب الذي يداريه عن عائلته في بيت صغير استأجره كي يمضيا فيه ليلتي السبت والأحد. يعاملها كأنها عشيقة، وهي سعيدة بهذا الدور، حتى اللحظة التي انفجرت فيها أعصابها ومرضت، بعض أنواع الحب تنتهي مجرد أن تظهر للمجتمع، يحمل المجتمع سوطه ويبدأ بجلد العاشقين، جلداً حتى الموت، أظن أن هذا ما حصل مع غزلان، جلدها المجتمع حتى ماتت وتركت أبي في حيرة. طوال حياته ظلت في عينيه دمعتان متحجرتان بسبب الحب

الذي مر كشهاب عابر، الحب الذي كان، الحب الذي عرفه لثلاثة أعوام من حياته، انتهى ولن يتكرر، هذا ما أدركته خالتي وفاء أيضا، لم تحاول أبدا فتح جراح الماضي أو أن تطلب منه أن يحبها كما أحب غزلان، كانت تراه سقيما بالحب، مصابا بأحد الأمراض المزمنة التي تختفي وتظهر من جديد، كانت تتعامل مع نوبات الحب والذكريات التي يعانيها حبيب مثلما تتعامل مع نوبات الربو التي تنتابه بين حين وآخر، تحتضنه، وتلف ذراعها حول كتفه وتطعمه بيديها أقراص الكبة، ياألله كم لديها فائض حنان ورثه عنها رشيد، ولم ترثه مايا؛ حنان ساعدني أن أتجاوز فقدان أمي، وانتقالي إلى بلد بعيد وغريب.

قبل أن تُنجب كنت أنا لعبتها، تشتري لي ثيابا كثيرة ودمى، ثم جاءت مايا إلى العالم بعد عام، ورشيد بعد أربعة أعوام، وصار هو لعبتي الصغيرة، أحببت خالتي وفاء بالقدر الذي أحببت أبي، كنت ممتنة للحياة التي وضعتها في طريقي، ساندتني خالتي في كل مراحل حياتي، هي من قالت لي أن أخبر أبي عن زواجي أنا وآزاد في اليونان، صدقني أبي، لا أعرف حقاً إن كان صدقني، الحياة في أستراليا جعلت الجانب الشرقي فيه يتراجع لصالح الرحالة في داخله، لم يعترض على سفرياتي وعملي وارتباطي بآزاد، وكان يعرف أني ورثت عنه جموحه وحريته وتوقه لمعرفة المجهول.

لو كان أبي حياً، ربما كنت حكيت له عن مروان، عن ظهوره في حياتي، وعن علاقتنا التي تحضر فيها بهجات صغيرة ونحن معا، وما أن يغادرني حتى تبدأ الأسئلة بالظهور، ماذا يعني ظهوره في حياتي، ماذا يعني غيابه! الى أين تمضي هذه العلاقة وأنا لا أريد

التورط أكثر مع شاب لا أعرف عنه الكثير، فقد زوجته في ظروف غامضة، ولا أعرف ما يريد مني، ولا ما أريد منه، لكني أعرف أنني أحس بالسعادة ونحن نضحك معا، كنا نضحك كثيرا، لا أعرف من أين تأتي ضحكته، تبدو لي غمازتاه الصغيرتان تشعان مثل أقمار وهو يضحك.

18

بدت عينا هيام تلمعان تحت الضوء الأصفر المنبعث من أباجورة صغيرة تضعها بجانب طاولة الكمبيوتر في الصالون، انتهت للتو من استقبال سيدة كانت تقرأ لها طالعها في ورق التاروت. انتقلت للجلوس على كرسي خشبي بجانب دورا المنشغلة في محاولة تصميم الصفحة التي تطلبها هيام للترويج لعملها، وكلما اختارت دورا صورة تدل على الأبراج والفلك وقراءات الطالع، ترفض هيام اختياراتها، وتقول إن هذه الصور متشابهة مع سائر صفحات قراء الطالع التي شاهدتها.

توطدت علاقة دورا مع هيام، إثر رعايتها لها بعد عملية الزائدة، وصار من الطبيعي بالنسبة لدورا أن تلبي رغبات جارتها حين تقصدها للحصول على مساعدات إلكترونية. حكت هيام أن بعض صديقاتها أشرن عليها بضرورة إنشاء صفحات على مواقع التواصل الاجتماعي، مثل فيسبوك وتويتر وانستجرام، لتمارس عملها من خلالها، على أن يقوم مَن يرغب في معرفة طالعه عبر ورق التاروت بتحويل المال من خلال الهاتف، عشرة دولارات للقراءة العامة، أما اذا كان هناك أسئلة أخرى سيتضاعف المبلغ. حكت هيام هذه التفاصيل، ثم عادت وكررت:

- أريدكِ أن تساعديني في إنشاء هذه الصفحات، وتعليمي طريقة إدارتها.

أوشكت دورا على الضحك، وهي تجد نفسها تتحول إلى مساعدة عرافة، فقالت:

- بماذا سأستفيد يا هيام من قيامي بهذه المهمات؟
- عرضت عليك في لقائنا الأول أن أقرأ لك طالعك ورفضت.
- أخاف.
- لقد شاهدتك برفقته منذ أيام، كنتما تسيران معا ضاحكين كأنكما في العشرين من العمر. لكن... مم... أخشى أن ينقل إليك معاناته.
- تقصدين مروان!
- حين جاءا إلي هو زوجته منذ عامين نصحتهما بترك السكن هنا، قلت لهما: «يوجد دم»، لكن يبدو أنهما لم يصدقاني، ولم يدركا أن ورق التاروت لا يكذب، أتدرين شيئا لو طلبوا مني القيام بجلسة روحية يوم قتل جمانة ربما تمكنت من معرفة هوية القاتل، بعض الأرواح تريد لحظة الموت أن تكشف عن شيء ما، لكن بكل أسف لا تجد آذانا صاغية. لو كنت عقدت جلسة روحية في ذلك الوقت ربما تمكنتُ من معرفة الحقيقة. في فنزويلا، كنتُ شاهدة على كثير من الحالات التي عملت فيها الأرواح كمساعدة للشرطة للكشف عن أسرار يبحثون عنها، لكن المجتمع هنا لا يعترف بالوساطة الروحية، وأن الأرواح تريد الاتصال بذويها لإيجاد منفذ لذا تبقى حائرة كأنها في سجن عميق ولا يسمعها أحد

خارج جدرانه السميكة.

- هل تقصدين أنك ستكشفين هوية القاتل لو عرفته؟

- آه ربما استطعت معرفة من يكون.

علقت دورا بسخرية:

- وهل ستجرؤين على قول اسمه؟

- نعم، سأفعل.

أحست دورا برعشة خفيفة وهي تحس نفسها متورطة بالإنصات لحكايات غريبة رغم تشككها بكل ما تقوله جارتها، لم ترغب في معرفة المزيد، لذا نقلت عينيها إلى شاشة جهاز الكمبيوتر مثبتة نظراتها عليها، ثم قالت لهيام:

- لنتابع اختيار الصور المناسبة للصفحات، ما رأيك أن نصمم صفحة الفيسبوك اليوم ونؤجل الباقي لوقت لاحق حتى تكوني تعلمتِ إدارتها بشكل جيد؟

وافقت هيام بكلمة «أوكي» ملولة، حيث كانت تنتظر من دورا أن تُمضي معها وقتاً أطول لمساعدتها على إطلاق مشروعها. أحست دورا بزعل جارتها العرافة، فبادرت إلى تلطيف الجلسة بسؤالها عن بداية معرفتها قراءة الطالع. حكت هيام كيف التقت ذات يوم مع قارئة كف في منطقة «كامدن تاون» في لندن، قالت لها وهي تمسك كفها اليسرى إنه يمكنها العمل كوسيط روحي حيث هي مهيأة للتواصل مع عالم الأرواح. لكنها لم تتحول إلى وسيط روحي، إلا بعد أن تعلمت قراءة أوراق التاروت من جارها الهندي صاحب المطعم الذي سيصبح لاحقا «بودا بار»، يوم جاء إلى الحي عام 1979، افتتح مطعما لتقديم الوجبات الهندية، كانت

هيام تتردد عليه بحكم الجيرة، وكان لراجيش نظرات ثاقبة، إلى أن استدعاها ذات يوم وسألها عن تاريخ ميلادها، ثم طلب منها أن تشاركه في إحدى الجلسات الروحية، التي خرجت منها منهكة جدا، لكن راجيش كان كمن عثر على ضالته، هكذا قال لها وهو ينقل لها علومه.

في البداية كان يقلقها شخصياً الحالة التي تصاب بها وهي تقرأ الطالع للغرباء، حالة زوال من اللحظة الحقيقية وانسحاب إلى المجهول، لترى عوالم وكائنات لا تعرفها، فتكتفي بسرد ما تراه. مع تقدمها في السن وحياتها وحيدة، ومع كثرة قراءة طوالع بشر غرباء زالت عنها رهبة المعرفة الأولى، وتحول الأمر بالنسبة لها لكرنفال حياتي مستمر يتحكم فيه القدر، وتقبلت أوجه الحياة الكثيرة بكل مسراتها وآلامها، ربما أصبحت الأشباح بالنسبة لهيام موجودة في كل مكان من بيتها، أحدها يسكن النسر المحنط الذي تضعه في أحد زوايا الصالون، وآخر يسكن رأس الغزال المعلق على الحائط، والثالث ربما يدخل ويخرج إلى جسد الببغاء روخو، وينطق من خلاله.

بالنسبة لهيام يكفي أن تحرك مروحة الريش الملونة كي تستدعيها أو تبعدها، بينما تفتح ورق التاروت. لكن كل الأشباح التي تسكن بيتها ميالة للخير، تحكي لدورا أن أحدها مشاكس قليلا، يمازحها بأن يخفي الأشياء ويعيدها، أو يطفىء النور للحظات، لكن في المقابل هناك جنية مقطوعة الساقين مستعدة لإلحاق الأذى بمن يجرؤ على دوس أطراف شعرها الطويل، لذا يبدو للناظر المتابع لحركة هيام أنها تتحرك بشكل خفي، بحيث تكاد لا

تُرى بجسدها الضئيل وحركتها الرهيفة، خائفة من إزعاج الجنية التي تلهمها بالكثير من الأسرار، كما كان لهيام طريقتها الخاصة في التعامل مع الأشباح التي تسكن بيتها، فحين تود النوم، تذهب إلى الطاولة التي يعلوها النسر وتربط حولها خيطا على شكل دائرة، كذلك تفعل مع رأس الغزال المعلق على الحائط، أما الجنية مقطوعة الساقين فكانت تقيدها ليلا بأن تعقد طرف قماش من الساتان الأبيض في مقدمة السرير، فلا تجرؤ الجنية على إفزاعها، ثم عند الصباح تقوم هيام بتحرير كائنات البيت والتعايش معها من جديد.

أخذ اختيار الصور المناسبة للصفحات وقتا طويلا، إلى أن اقترحت دورا على هيام قائلة:

- لماذا لا أقوم بالتقاط الصور لك وأنت تفتحين الأوراق، ثم تختارين إحداها لنشرها على الصفحة، ستكون جديدة ومقنعة أكثر.

بدت الفكرة بالنسبة إلى هيام غريبة، لكنها مثيرة أيضا، عاودتها ذكرياتها القديمة حين تم اختيارها ملكة جمال الكرمة في زحلة، وكيف تحولت حينها لنجمة المدينة، نجومية لم تستمر لأسباب كثيرة منها زواجها وسفرها إلى ڤنزويلا.

ارتدت هيام عباءتها المقصبة، جلست إلى طاولتها في وضعية الاستعداد للتصوير فتحت أوراق التاروت، فجأة انتفضت واقفة وهي تقول لحظة واحدة فقط، غابت هيام في غرفة النوم قليلا، ثم عادت ومعها عصا طويلة، وبلورة متوسطة الحجم تحملها باليد اليسرى وتضمها إلى صدرها، وضعتهما على الطاولة التي تمارس عليها مهامها السحرية، ثم أحضرت قفص الببغاء روخو المستقر

عند باب شقتها، عادت للجلوس في وضعية التصوير وراء الطاولة، في يدها العصا والبلورة أمامها، تلاحقها عينا دورا وهي تفتح القفص وتمسك بالببغاء لتضعه على كتفيها، محاولة أن تمنعه من الطيران، أمسكته من ساقيه فما كان من الطائر إلا أن زعق وفرد جناحيه فوق كتف هيام، التقطت دورا بعض الصور في تلك الوضعية، لكنها بدت صورا رديئة، لا تحقق الهدف المنشود، حيث يبدو الطائر مجذوعا يكاد زعيقه يخرج للرائي؛ فيما يد هيام تحاول تثبيته على كتفها، لذا قامت هيام بترك العصا ونقل الطائر لتحتضنه بكلتا يديها بجانب البلورة الزجاجية، كانت تلك الصورة الأيقونية التي اقتنعت هيام بأن تتصدر صفحتها الإلكترونية، هي والبلورة وروخو.

بعد أن انتهت دورا من مهمتها التكنولوجية، كما لو أنها صارت جزءا من أجواء هيام السحرية، تشجعت أن تحكي لجارتها عن المنامات الغريبة التي تشاهد فيها امرأة عارية ذات شعر طويل أشقر تنادي عليها وتمد لها يديها وتطلب منها القدوم، وما أن تقترب منها دورا خطوات حتى تعاود تلك المرأة دفعها من جديد. أصرت هيام على أن هذه هي روح جمانة، وأنها لم تغادر الحي.

لم تكشف هيام لدورا أن مروان جاء إليها وأخبرها أن جمانة تظهر له، وأنه لمحها في عدة أماكن. اكتفت بأن استمعت لدورا وهي تحكي عن أحلام تزورها فيها امرأة مجهولة، وأنها تستيقظ ليلا لتجد سريرها يهتز وسط الظلام. تحكي دورا عن أنين خافت تسمعه في قلب الليل، ووشوشات مجهولة كأنها قادمة من تحت الأرض، تقول لهيام:

- لا بد أني أعاني من الهلاوس، لو استمر الأمر على هـذه الحال لابد أن أرى طبيبا.
- هل تظنين أن جمانة فقط هي التي قُتلت في هـذا المبنى واختفت جثتها؟ إن مجمع البنايات هذا قائم على أنقاض الجثث.

حدقت دورا في هيام وهي تتخيل أن كلامها تناثر في فضاء الغرفة الشاحبة، ذات الضوء الأصفر الخافت المنبعث من الزوايا... تبعثرت أحرف السؤال فعلق جزء منه عند قرن الغزال المثبت على الحائط، وعلى ظهر صدفة السلحفاة العملاقة، وعلى جناح الببغاء روخو، الذي انتفض مذعورا مثلها.

«تعالي معي»، بدت هيام مثل جنية عارفة بالخبايا وهي تمد يدها البيضاء نحو دورا وتطلب منها مرافقتها نحو المطبخ؛ هناك حركت هيام ستارة ملونة، بان خلفها باب خشبي صغير ظنت دورا أنه يؤدي إلى شرفة المطبخ، لكن ما إن فتحته هيام حتى ظهرت سلالم حديدية تصل إلى أسفل المبنى، وتطل على مساحة واسعة جدا تصل بنايات «مجمع ديبة ببعضها» من الجانب الخلفي، تتجمع في ذاك المكان سيارات متهالكة، موتوسيكلات محطمة، أبواب وشبابيك، قطع حديد وأخشاب، قمامة، أجهزة كهربائية من زمن مضى، وأشياء كثيرة متناقضة.

علقت دورا: «هذه السلالم غير موجودة في الشقة التي أسكنها... أووف ثمة رائحة كريهة تنبعث من المكان.»

أشارت هيام نحو الأسفل قائلة: «نعم السلالم غير موجودة في الجانب الذي تسكنين به لكنها موجودة في هذا الجانب، الذي

توجد فيه شقة جمانة أيضا. أتدرين أن جثثا كثيرة سقطت هنا أيام الحرب وبعدها. جثث لم تجد من يدفنها، من قال إن الشبح الذي يزورك ليلا هو شبح جمانة، لماذا لا يكون شبح أحد أفراد العائلة التي ماتت مجتمعة هنا منذ ثلاثين عاما!»

تراجعت دورا قليلا إلى الخلف، وهي تحدق في عيني هيام حادتي الزرقة، ثم كأنها تنبهت فجأة إلى عبثية اللحظة فقهقهت ضاحكة وهي تقول:

- لِمَ لا يأتي أحد أفراد العائلة الميتة لزيارتك أنت؛ لِمَ يأتون لزيارتي أنا، وهم لا يعرفوني!

انزعجت هيام من استخفاف دورا بما كشفته لها، هزت كتفها بلا مبالاة وهي تقول بسخرية:

- لن يأتي أحد لزيارتي لأني محصنة ضد الأرواح التائهة والأشباح العابثة، إذن أنت متأكدة أنها جمانة من تأتيك ليلا، هي أيضا لا تعرفك، لكن هل أتت لتوصيك على حبيبها، أو لتحذرك من التورط معه؟

جفلت دورا من جملة هيام، وللمرة الثانية ظل سؤالها معلقا في فضاء البيت الغامض.

مضت دورا وهي تفكر ماذا لو فتحت أوراق التاروت هي ومروان؟ ماذا ستكشف لهما؟ هل ستعرف حقاً ما يخبئ لهما الغد؟ أبعدت الفكرة عن ذهنها لأنها لا تجرؤ على ذلك، ولا تريد أن تعرف شيئاً عن الغد.

19

رافقتني دورا آخر الأسبوع إلى بيتنا في الضيعة، كنت أمضي هناك يومي السبت والأحد. كان شعوري ملتبسا نحو هذا البيت، أحب القدوم إليه، لكن هناك تفاصيل كثيرة تذكرني بجمانة وبأمي أيضا، لا توجد صور لجمانة في أي مكان، لكن أمي أجد لها صورا وتذكارات ولوحات معلقة على الجدران، أوان خزفية اقتنتها، مسبحة كبيرة من حجر الكهرمان الأصفر، سجادة حريرية ثمينة معلقة على الحائط، منقوش عليها مغامرة صيد لظباء شاردة، تحف وتماثيل من مختلف الأحجام كل منها يحكي قصة. رائحتها أشمها في الزوايا التي جلست إليها، أريكتها المفضلة، وشالها الذي ظل متروكاً على الكرسي الهزاز طيلة هذه الأعوام.

لكني أنفر من تجهم البيت الذي يذكرني بأبي، تضايقني العتمة المفروضة في كل مكان والشبابيك المغلقة، تلك العتمة التي اعتدناها ثلاثتنا وتآلفنا معها حتى ما عادت تدهشنا، وحدها جمانة حين أتت إلى البيت فتحت الأبواب كلها والنوافذ، تخلصت من الستائر الثقيلة ذات اللون الخمري واستبدلتها بأخرى حريرية ومخرمة، ولم تكمل مهمتها في التخلص من الأثاث القديم لأن أبي أظهر اعتراضه، لذا ظللت أتمنى زوال كل شيء والاحتفاظ فقط بكرسي أمي الهزاز، وأشيائها الصغيرة.

وحده عمي ناصيف الذي يسكن ملاصقاً لبيتنا أثنى على ما قامت به جمانة، امتدح جرأتها على القيام بـــتغيرات في بيتنـــا. في الحقيقة لطالما امتدح عمي زوجتي، وأثنى على كل ما تقوم به، لكنه فجأة ابتعد عنا، وادعى أن ثمة خلافا حدث بينه وبين أبـــي.

دورا قالت إن طاقة المكان غريبة في بيتنا، وصفت إحساسها وهي تجول في حجراته بأنها تسمع أنينا خافتا قادما من عالم آخر، حركت كلماتها في داخلي ألماً. صعدتُ بها إلى غرفتي في الـــدور العلوي التي سكنتُها مع جمانة، لم تكن غرفة بالمعنى الضيق كانـــت مساحة كبيرة فيها صالة واسعة، وحمام، وغرفة نوم، شاهدت دورا حقائبـــي وأشيائي المجمعـــة علـــى الأرض في إحـــدى الزوايـــا، واللوحات الكثيرة المسنودة إلى الحائط، حكيت لهـــا أني أحـــب لوحات أوجين بودان، وجمانة تحب فان غوخ وشاغال، أخبرتها أن جمانة أحضرت معها من باريس مستنسخات متقنة من لوحاتهما. لكن دورا علقت قائلة: «كيف يمكنها أن تحب شاغال وفان غوخ معا!؟»

حكيت لدورا الكثير من التفاصيل الصغيرة... كيف مـــات أبـــي بعد بلوغه السبعين بأيام قليلة، ليلة إصابته بنوبة قلبية وهـــو يلعب البوكر مع أصدقائه. حدث هذا بعد وفاة أمي بخمسة أعوام، كنت أنهيت دراستي ورجعت من باريس برفقة جمانـــة، وبـــدأت بممارسة عملي في شركة هندسية لبنانية فرنسية.

في الأشهر الأولى من عودتي سكنا معه، أحسست أن مـــن واجبـــي مواساته قليلا في وحدته، لكننا لم نكن نلتقي إلا خلال وجبة الغذاء، يتناول طعامه وهو صامت إلا من كلمـــات قليلـــة،

حضوره يجعل الجو ثقيلا جدا في أي مكان. جمانة كانت تقول لي إنه ينظر لها بطريقة غريبة، وحين حاولت سؤالها عن طبيعة نظرته، هزت كتفها بلامبالاة ثم ابتسمت ابتسامة جانبية ومضت مبتعدة. لم أحاول الإلحاح بالسؤال، و لم نتحدث مرة أخرى عن تلك النظرة، فقد انتقلنا بعد أسابيع قليلة إلى بيروت، وصرت أزوره وحدي في آخر الأسبوع للاطمئنان عليه، أحيانا أمضي معه ليلة واحدة وفي أحيان أخرى أعود بعد ساعات. نادرا ما دار حوار حميم بيننا، لا أذكر أنه سألني عن زواجي، ولا عبر في أي لحظة عن رغبته في رؤية أحفاد له. كان رجلا غريبا جدا، وغير مفهوم بالنسبة لي، وما كان يقينيا فقط هو أنه السبب في تدهور حالة أمي الصحية، كلما فكرت بهذا الأمر أحس بكراهية نحوه.

في مثل لحظات الألم التي كنت أحياها بعد رحيل جمانة، ظهرت دورا مثل ضوء قوي جذبني بريقه. معها أحكي وأحكي، وأنتقل من الماضي إلى الحاضر، من حكايات طفولتي وشبابي، إلى قصتي مع جمانة؛ بإصغاء تام تُنصت لي، لا تعيش هي في هالة الهشاشة التي كانت جمانة تسكن بها، تلك الهشاشة المهددة بكل صورها، مثل جمال مستباح، مثل حرير سخي يثير طمع التجار.

دورا كانت النقيض لكل هذا، ترى الهشاشة وتقف أمامها، تحميها، تسندها، تقول إن النساء الضعيفات، الأطفال الفقراء، السجناء المظلومين، النازحين من ديارهم، المهاجرين بسبب الحروب، ذوي الاحتياجات الخاصة البدنية والنفسية، جميعهم يحتاجون للنفاذ إليهم، مساعدتهم، إنقاذهم، لأنهم مصدر الألم على

هذه الأرض، ولأنهم من يتم استغلالهم في كل الأكاذيب السياسية والدينية الكبرى.

دورا أصبحت جسرا يربطني بالحياة. ربما تكون عطاءً سخيًا من السماء، كي أتمكن من غفران قسوة كل ما أُخذ مني.

20

موسيقى غناء صوفي خافت، يتردد صداها في أرجاء الغرفة، ترتفع من هاتف مروان المحمول، آخر ما أذكره أنه كان يحكي لي عن رواية يكتبها، كأننا معزولان عن الكون، ظلمة شديدة يبددها قليلا ضوء شمعة في زاوية بعيدة، وصوت امرأة تغني:

عذّب بما شئت غيرَ البعـدِ عنـكَ تجـدْ

أوفى محـبٍّ بمـا يرضـيكَ مبتـهِجِ

وخـذْ بقيَّـةَ مـا أبقيـتَ مـن رمـق

لا خيرَ في الحبِّ إن أبقـى علـى المُهـجِ

كان مروان قد أخبرني ذات مرة وهو في بيتي أن هذه القصيدة لابن الفارض. رفعت رأسي، أحس بثقل شديد، كنا نجلس على السجادة على الأرض في بيته الجبلي، شربنا النبيذ ثم غفوت ورأسي على فخذه بينما هو يتحسس خصلات شعري. سألته:

- أتراني غفوت قليلا؟

تمتم كأنه يكلمني من عالم آخر:

- آه... نعم، كنت تنادين على أمك.

حكيت له أني كنت أحلم ببيت القلعة، وأن بيته يذكرني به، قلت إن هذا البيت فيه أنين أيضا. أوقفني عن الكلام وهو يتلمس

شفتي بأصابعه، ويحرك وجهي نحوه، تحسس شعري وأذني وعنقي، كان في عينيه رغبة تأثرت بها، لكني لم أفهمها. أتوسد ساعده الأيسر، ويده اليمنى تلامس عنقي، حدق في عيني مباشرة ثم قال:

- أنتما متناقضتان كثيرا، لكنكما متشابهتان أيضا، ربما تلك الطيبة النادرة، ربما العطف في رؤية العالم، أو الروح البرية الشاردة، ربما...

لم يكمل عبارته، وكأنه استدرك ما ينوي قوله، فاستبدله قائلا:

- سأحكي لكِ شيئاً أحب مشاركتك به، في المرة الأولى التي نمت فيها مع جمانة، طلبت مني أن أُعِد لها على الأرض سريرا من الرماد، لم أفهم ما تقصده، ابتسمت لي ضاحكة وهي تقول إنها تريد مني أن أشعل كثيرا من الجمر وأمدده على الأرض، وأتركه حتى يصير رمادا، وأننا سنمارس الحب عليه. قالت أنها تحب تجريب نعومة الرماد مع ملمس جسد تحبه، تحب أن تشعل النار به من جديد.
- شيء غريب، لا يخطر ببال أحد. ربما أحب أن أجرب هذا يوماً.

علق كأنه يستأنف حوارا مع نفسه:

- دائما كان يخطر في بالها أمور غريبة تدرك أنها سوف تُدهش المتلقي.

فتح جهاز كمبيوتره المحمول، وبدأ يعرض أمامي مجموعة من الصور، في بلدان وأماكن مختلفة، باريس، بيروت، القاهرة، الرباط ومراكش. جمانة تقف على رمال المحيط تعلو وجهها ابتسامة

واسعة، جمانة ممددة على الأرض تمارس هواية الرسم أمـــام رقعـــة بيضاء مستطيلة، وفي يدها فرشاة رسم مغموسة باللون الأحمـــر، وهي تجلس على الأرض في ساحة «جامع الفنا»، صورة أخـــرى أمام مسجد الإمام الحسين في القاهرة وهي تضع غطاء رأس أبيض. صور لهما التقطاها سويا، يأكلان، يلعبان بالرمل، تجلس في حضنه، يضع رأسه على كتفها. يحتضنها، تلف ذراعيها حول كتفه، لقطة أخرى وهي ترفع سبابتها في الهواء وكأنها تحذره من أمر ما.

صور كثيرة التقطها لها خلسة وهي نائمة في سريرها، وهمـــا معًا برفقة مجموعة من الأصدقاء، أو في مناسبات شتى، في النـــهار والليل، في لحظات الصخب والسكون، صور كثيرة جدا أصابتني بالذهول وجعلتني أطيل النظر إلى ملامحها الغامضة، ففي كل صورة بدت لي امرأة مختلفة، وكأنها عروسة روسية في داخلها امرأة تلـــو أخرى. لكن كل الصور تؤكد رغبته في تخليد اللحظـــات الـــتي جمعتهما. والحكاية كلها تتلخص في هذه اللقطات، حيث يتكثف الزمن، وينسال أيضا بلا رحمة، فوراء كل مشهد ألف ذكرى.

ونحن نشاهد معا صور جمانة على جهاز الكمبيوتر. أردت أن أخبره ما كان يقوله أبـــي عن لعنة الجمال، عن أمي غزلان، تمنيت لو كان لها هذا العدد الهائل من الصور مثل التي لجمانة. لكن جمانة لم تنجب أي طفل أو طفلة! رحمت كائناً مجهولاً مـــن الوجـــود والحياة، مع سؤال معلق أبداً عن سبب الفقد والحياة غير الطبيعية. جمانة عرفت أن جمالها ملعون وسيجلب الشؤم لسلالتها فلم تقع في غواية الأمومة. غزلان لم تدرك كل هذا، كانت أكثر سذاجة من الحصول على نعمة الوعي.

أقفل جهاز الكمبيوتر، ثم سألني بشكل مفاجيء:

- هل تسافرين معي إلى القاهرة، أرغب في رؤية الشيخ شاهين، وحضور حلقة الذكر، لكني لا أريد السفر وحيدا، في كل عام كنت أسافر مع جمانة إلى مصر لرؤية الشيخ شاهين في جبل المقطم.

لم ينتظر إجابتي، بل راح ينشد:

ما بينَ مُعْتَرَكِ الأحداقِ والمُهَجِ
أنا القَتيلُ بلا إثْمٍ ولا حَرَجِ
ودَّعْتُ، قبلَ الهَوى، رُوحي، لما نَظَرَتْ
عيناي منْ حسنِ ذاكَ المنظرِ البهجِ
لِلّهِ أجفانُ عين، فيكَ، ساهِرَةٍ،
شَوْقاً إليكَ، وقَلْبٌ، بالغَرامِ، شَجِ

رفعتُ جسدي عن ساعده إلى الوراء، لأستند بجذعي إلى مجموعة كبيرة من الكتب ترتفع مثل جدار صغير، ما إن لامستها حتى سقطت عدة كتب على الأرض، توقف مروان عن الغناء وتناول أحد الكتب، كانت رواية «الغريب» لألبير كامو، قلب صفحاته ثم أعاده إلى مكانه وهو يقول لي مع ابتسامة شبه ساخرة:

- هل تعرفين كيف مات ألبير كامو؟

لم ينتظر إجابتي، بل تابع قائلاً:

- انتهت حياته في حادث سيارة وهو عائد إلى باريس، بعد عطلة رأس السنة، اصطدمت سيارة التاكسي بشجرة، في محاولة لتفادي الاصطدام بعربة نقل، فارق الحياة فورا، دون تمرد ولا مقاومة، مات بهذه الطريقة ليؤكد صدق

فلسفته أن الوجود كله عبث، شقاء بلا جدوى.

انتابني إحساس شديد بالكآبة وهو يحكي، لماذا أجلس في هذا المكان معه، أتراني أغار من شبح امرأة ميتة، امرأة لم يعد لها وجود في هذه الحياة. من قال إنه لم يعد لها وجود، وكل الكلمات تؤكد حضورها، ونفوذها في الذاكرة والقلب. شعرت برغبة قويـــة في مغادرة المكان. كانت الستائر المسدلة تفصلنا عن العالم الخارجي، المساء تسرب بخفة. قلت له:

- هيا بنا، أريد العودة إلى بيروت.

21

في داخل شقة هيام، في حجرة الصالة وأمام الطاولة المستديرة جلست ديبة على كرسي تنفذ من جوانبه طبقات شحومها المكدسة، كانت تنتظر قدوم هيام، طقطقت أصابعها -المليئة بخواتم كبيرة- دلالة على انزعاجها من الانتظار. حين استقبلتها هيام، نظرت إلى الساعة كانت الواحدة ظهرا، أشارت لها بالدخول قائلة إن لديها ضيوفا، و لم تنته من جلستها معهم بعد، لكن ديبة لم تكترث واكتفت بكلمة واحدة تدل على أنها سوف تنتظر.

لمحت ديبة بطرف عينها زوار هيام وهم يغادرون، ميزت بينهم مصمم أزياء شهير برفقة شابة حسناء. علت وجهها ابتسامة باهتة عند دخول هيام وترحيبها بها، وصيغها عبارات اعتذار للحاجة ديبة تفيد بأنها لو عرفت بهذه الزيارة المفاجئة ما كانت استقبلت أحدا هذا النهار. ثم قالت:

- سوف أحضر لك الليموناضة.
- لا، تعالي الآن، لا أريد شيئا. أود أن تقرأي لي ورق التاروت، إذ أنوي القيام بمشروع هام.

فردت هيام سبع ورقات، بان على ملامحها الارتباك وهي تحدق بالأوراق كلها ورقة ورقة، ظلت صامتة لأكثر من ثلاث دقائق ثم قالت عبارات عامة لا تفيد شيئا نحو ما تفكر به ديبة، ختمتها بجملة: «لكن الورق يحذرك يا حاجة أن لا تقومي بالأمر.»

تأففت ديبة، ثم قالت متبرمة:

- هل هذا كل شيء؟ جربـــي مرة أخرى.

لمت هيام الأوراق، وأعادت توزيعهـــا، حـــدقت المرأتـــان بالأوراق المنثورة، تكرر ظهور مجموعة من الســـيوف المعقوفـــة، والعصي، والكؤوس، والعملات، ورسم الشيطان. خبطت ديبـــة على الطاولة بيدها الثقيلة، قبل أن تقول العرافة أي كلمة، أصابت هيام رعشة من تلك الخبطة التي ألقت بعدد مـــن الأوراق علـــى الأرض، وقفت ديبة هامة بالمغادرة وهي تقول:

- سوف أعود في يومٍ آخر.

فتحت ديبة باب شقة هيام وغادرت باديا عليها الانزعـــاج، ارتفع صوت الببغاء «روخو» مرددا: «مع السلامة.. مع السلامة» نظرت إليه ديبة بغضب كما لو أنها تتمنى خنقه. بعـــد مغادرتهـــا أبعدت هيام الستائر الثقيلة عن نوافذ الصالة، فتحـــت الشـــبابيك فدخل ضوء النهار ساطعا، تحدثت هيام بصوت مرتفع قائلة لكائنات البيت: «أووووف كم طاقتها ثقيلة!» أشعلت أعواد بخور وراحـــت تطوف بها ثم حملت مروحة يدوية من ريش لونه وردي وبدأت في تحريكها في كل الاتجاهات، كما لو أنها تطرد الهـــواء الراكـــد، ثم أشعلت شمعة بيضاء ووضعتها قرب المرآة عند مدخل البيت. عادت إلى الطاولة التي تبعثرت عليها الأوراق، لمت ما وقع علـــى الأرض داعية بهمس: «لتحل رحمة السماء على من هم في الأرض.»

هبت نسمات شهر أكتوبر فحركت الستارة الرقيقة، لكـــن هيام لم تحس بتلك النسمات، وغمرها شعور بالثقـــل ورغبـــة في مغادرة البيت.

يبدو مقهى «بيتنا» في «حي الأمير» المكان الوحيد الذي يمكن لسكان الحي اللقاء فيه خلال ساعات النهار، لتناول المناقيش وشرب القهوة أو الشاي في مكان ظليل. زينت إيمان جدران المقهى بصور قديمة بالأسود والأبيض لمدينة بيروت في أيام زمان، صور للمرفأ وسوق سرسق، وسوق الطويلة، وساحة الشهدا، يوم كانت بيروت العاصمة التجارية والثقافية للمنطقة كلها.

في الزاوية البعيدة بالقرب من آخر طاولة وضعت إيمان على الجدار ثلاثة أرفف صغيرة عليها جرائد ومجلات وبعض الكتب الرائجة التي تقرأها خلال أوقات الملل، إلى جانب علبة تحتوي حجارة شطرنج، في تلك الزاوية تجلس إيمان عادة وقت خلو المكان من الزحام، وغالبا تستدعي جارتها هيام لتمارس معها لعبتها المفضلة بتركيز شديد، وفي تلك الزاوية أيضا جلست هيام مرات عدة كي تستقبل زوارها العابرين الذين لا ترغب في استقبالهم داخل شقتها، تفتح لهم ورق التاروت في المقهى، وتقرأ لهم ما يخبئه، ثم تُنهي الجلسة بسرعة، بعد أن تتقاضى أجرها.

كانت إيمان تجلس في ركنها، ترتدي ثوبا من قماش الجيرسيه من اللونين الأبيض والأسود، وتنتعل صندلا أسود من الجلد. نقرت هيام على الطاولة منبهة لوصولها. بادرتها بالسؤال حين لاحظت توتر ملامحها:

- ما بك؟

- أُحس بضيق شديد.

أشارت هيام بيدها نحو الخارج، ثم حركت ذراعيها في إيماءة لحجم البرميل، وهي تقول:

- إنها تنوي القيام بأمر ما.

هزت إيمان رأسها مدركة أن جارتها تقصد ديبة في كلامها، زمت شفتيها بأسف وهي تسأل بأسلوب يائس:

- ألم تعرفي ما هو؟
- طبعا لا، لكنه لن يسر أحدا، ورقها كان سيئا جدا.
- هل أنت خائفة؟
- سحبت العرافة ضفيرة شعرها الطويلة من خلف ظهرها وهي تقول:
- ليس الخوف تحديدا هو ما أشعر بـــه، لا يليـــق بـــــي الخوف، بل هناك شعور أكثر بشاعة هو العجز، معرفة أن هناك ما سوف يهوي وما سوف يبرز، وعدم القدرة على فعل شيء. تتبدل الأحوال والأشياء مع مرور الزمن لكن الشخصيات ذاتها تبقى دون تغيير للأبد.
- يبدو لي كما لو أن مجمع العمارات هذا، بل الحي كلـــه صار مشؤوما منذ وقوع الجريمة.
- لم تعلق هيام على جملة رفيقتها بل غمزت بعينها قائلـــة: «يا تسلميلي، ما رح يصير أكتر من اللي صار... خلينا نلعب شطرنج؟»

تجاوز عمر الصلة بين الجارتين ثلاثين عاما. لذا صار بينـــهما نوع من التفاهم لا يحصل بين البشر إلا نتاج تقادم الزمن. حـــين جاءت إيمان للسكن في الحي أواسط سنوات الثمانينات كانـــت حاملا بابنتها الوسطى، الحرب الأهلية المشتعلة قســـمت المدينـــة، وشكلت خريطة متكاملة للحياة صار يعرف خطوطها كل مـــن

يشق طريقه وفق تخمين وقت تبادل القصف أو توقفه، لذا كانت الذكريات بينهما متشابكة بين ساعات النزول للملجأ، تقاسم أرغفة الخبز، وغالونات الماء، المساعدة في وضع أكياس الرمل كي تُشكل متاريسا أمام واجهات محلات الحي، ثم سهريات ضوء الشمعة، وسماع نشرات الأخبار من راديو ترانزستور صغير يتداخل صوته مع البكاء المتواصل لاحدى بنات ايمان.

حين دخلت دورا إلى المحل كان يبدو عليها التعب، وقد لوحت الشمس وجهها، أشارت للمرأتين من بعيد وقد لاحظت انهماكهما في لعبة الشطرنج، اقتربت منهما ونظرت إلى حجارة اللعب، وقفت قرب هيام التي اختارت الحجارة البيضاء، أشارت دورا بإصبع السبابة كي تُنبه هيام لضرورة حماية الملك، لكن ايمان كانت أسرع منها وهي تحرك الحصان وتقهقه قائلة: «كش ملك.»

22

غادرت لوسي منزل دورا بخفة كما أتت، ذات صباح باكر حين كانت دورا تستعد للذهاب إلى عملها، أخبرتها لوسي أنها ستنتقل للعمل في إحدى شقق الجبل، فقد ساعدتها ديبة على تأمين عمل عند أسرة تمضي الصيف في بحمدون، أخذت لوسي أغراضها، ورفضت أخذ المال الذي عرضته عليها دورا، وأخبرتها أنها لن تتمكن من أخذ قطة جمانة معها، وستتركها هنا.

لطالما أحست دورا نحو تلك القطة شعورا غامضًا ملتبسًا، أنها تعرف كل الحكاية، وأن تلك القطة شاهدة حية على كل ما حصل. ينتاب دورا إحساس بالريبة وهي تتابع حركة القطة التي تمضي أغلب وقتها مختبئة تحت أحد المقاعد وكأنها خائفة من شيء ما. لكن دورا اعتادت وجودها، وألفت ظهورها واختفاءها، أحيانا كانت تدير معها حوارات، تنتهي كلها بشبه جملة مفاداها: «ليتك قادرة على الكلام يومًا.» أما حين يكون مروان في بيتها ويداعب القطة برفق وتستكين هي إلى لمساته، تُحس دورا كما لو أنه يبث نجواه لصاحبتها الراحلة. كأن القطة قادرة على النفاذ إلى عالم الأرواح وحمل رسالته إلى جمانة.

كانت الساعة الحادية عشر مساءً، حين رن هاتفها المحمول، ولأن مروان كان في بيتها، استغربت من سيكون المتصل في هذا الوقت، أسرتها وأصدقاؤها يعرفون أنها لا تحب الاتصالات الليلية.

جاءها صوت فرح مخنوقا من البكاء:

- آلو.. دورا.. أنا فرح، تعالي إلي حالا.

نظرت دورا إلى مروان بقلق ثم قالت:

- إنها فرح تبكي بهستيرية وطلبت مني أن أذهب إليها في الحال.

تمتم مروان بصوت خفيض:

- - فرح.. من فرح..؟ ثم لِمَ في الحال!

- سأخبرك حكايتها فيما بعد، الآن يجب أن أذهب إليها.

- سأرافقك.

عند وصولها إلى أطراف المخيم، شاهدت نيرانا مشتعلة من بعيد ومجموعة من الرجال والنساء يحملون بعض الحاجيات ويسرعون بالهرب، مرت من جانبهم بسرعة هي ومروان، سارت عابرة ما تبقى من الخيم المحترقة لتصل إلى خيمة فرح. وجدتها ترقد على الأرض، تبكي بحرقة وسط خيمتها شبه المحترقة. كانت حروق طفيفة قد طالت شعرها وأطرافها وهي تحاول اخماد النيران.

تلفتت دورا حولها، قلبت ما نجا من الثياب المركونة في زاوية الخيمة، اختارت جلابية طويلة ساعدت فرح على ارتدائها، ثم قالت لها: «هيا لنذهب من هنا.»

لم تقو فرح على المشي، هزت رأسها نفيا، وعاودتها نوبة البكاء، خرجت دورا من الخيمة، وطلبت من مروان الدخول لمساعدتها. غادر ثلاثتهم المخيم، كان مروان يحمل فرح، ودورا تشير إلى إحدى سيارات الأجرة كي تنقلهم إلى المستشفى لعلاج الحروق التي أصابت الشابة.

رغم مرور دورا بحكايات مشابهة، إلا أن حالة فرح قبضت قلبها بشدة، منذ اللقاء الأول مع تلك الفتاة تملكها نحوها حدس قوي بالرغبة في حمايتها. لذا شجعتها على تعليم الأطفال في المخيم، ودعمتها كي تستعيد توازنها النفسي وتعود للكلام، كما شجعتها دورا على مواصلة تعليمها ودراسة الشهادة الثانوية من جديد كي تلتحق بالجامعة. العلاقة بين دورا وفرح تشكلت بشكل سريع ووطيد بالنسبة لكليهما، وكأن كلا منهما وجدت ضالتها في الأخرى.

قالت لها دورا:

- ستظلين معي.

كان الشتاءُ يقترب. الحريق الذي اندلع في مخيم اللاجئين جعل دورا تنهمك في عملها لساعات طويلة تغيب خلالها عن البيت، فقد انهمكت في تسجيل أسماء العائلات التي وجدت نفسها في الشارع. الحريق أدى لتشريد أكثر من مائة وخمسين عائلة آوتهم بيوت الصفيح والخيام، لكن حتى هذا السقف المهتز لم يعد متوفرا لهم، وباتوا ليلتهم تلك إلى جانب خيامهم المحترقة. لطالما فكرت دورا أن ذاك المشهد المأساوي قد سبق لها رؤيته، أو أنه يتكرر في «ديجافو» مرعب لا تدرك سبب استنساخه في صورٍ متكررة تختلف فقط في المكان والزمان، لكنها تتطابق في ضحاياً الحروب والخراب والتشرد.

لكن دورا كرست الكثير من وقتها لرعاية فرح، لم تعد تكترث باتصالات مروان وحين يلح للقائها تطلب منه القدوم ليجلس معهما، كان كل همها في ذاك الوقت أن تُعيد فرح للحياة.

تناوبت هي وهيام على البقاء في البيت مع فرح، حين تغادر دورا إلى عملها تستدعي هيام للبقاء برفقة الصبية محاولة التخفيف عنها بكل ما لديها من حيل حكيمة استعانت بها على مدار حياتها لمساعدة المعذبين في الأرض، وفي أيام الآحاد كن يذهبن جميعا لتناول الفطور في حديقة دكتور يوسف.

كانت دورا مقسومة في داخلها لأكثر من محور، من جهة تحس أن مساعدة فرح وتقديم حياة شبه طبيعية لها بات من إحدى مسؤولياتها في الحياة، ومن جهة أخرى يتنازعها اللوم لأن فرح من المفترض أن تكون جزءً من كل، وهي في إيوائها لها تقدم حلا سريعا وسهلا قد يربك حياة الصبية فيما بعد، لو قررت دورا مغادرة بيروت، لكنها سرعان ما تُبدد هذه الأفكار وتواصل عملها برفقة شبان وفتيات منهم من يعمل معها في المؤسسة، ومنهم من جاء متطوعا لإنقاذ العائلات المنكوبة، والمساعدة في تقديم المعونات ومحاولة ايجاد مكان آمن لهم.

23

«تصغر كل مصائب الدنيا حين يمر عليها الوقت».

قال دكتور يوسف هذه العبارة، وهو يسقي نبتة البوتاس المعلقة عند النافذة وتمتد أوراقها إلى الخارج. حاول الطبيب مواساة جارته إيمان، التي جاءت إليه باكية بسبب طليقها الذي هجم على المحل وكسر زجاجه، أحست دورا أن إيمان بدت هذه المرة مثقلة جدا بالحزن، وكأن ما انكسر لم يكن زجاج المحل فقط، بل حياتها هي، كانت تحكي منفعلة أنها لا يمكن أن تتخذ نحوه أي إجراء قانوني لأنه والد بناتها، ولأن البنات الثلاث يدافعن عنه، ويعتبرن أنه مسكين، وأن ما يقوم به ليس إلا تعبيرا عن انكساره.

- كان عليك أن تكون طبيبا نفسيا يا حكيم.

قالت دورا هذه العبارة، وهي عائدة من المطبخ تحمل إبريق الشاي، وضعته على الطاولة، بينما هيام توزع الأطباق والأكواب، وتدعوهم للاختيار بين المناقيش، وكعكات الكنافة بالجبن.

ردت إيمان معلقة على كلام الطبيب، وعبارة دورا:

- كلام جميل، لكن الأيام تمضي، وسنة وراء أخرى تنقضي من عمري دون أن أجد حلاً حقيقيا، ظللت خائفة منه، ومن أن يُنفذ تهديداته، لو أني واجهت الموقف بقوة منذ البداية، لو أني...

قاطعتها هيام قائلة:

- يا «تسلميلي»، هل نقول الحكاية من الأول! لم تكوني حينها قادرة على فعل شيء، كنتِ وحيدة مع طفلات صغيرات. اتركي هذه الأفكار الآن وهيا لنأكل، أنا جائعة جدا.

نادى الطبيب على حفيده ليأتي من غرفته ويتناول طعام الفطور معهم. جاء يوسف مبتسما وبملامح بشوشة تبادل مع فرح نظرة طويلة، بدت كافية لأن تُطلق من أعين الشابين في لحظة واحدة شرارات غامضة، سرعان ما أشاحت فرح بوجهها سريعا، وعادت تحدق في الأرض، كانت في مثل عمره، لكن واقعهما مختلف تماما.

رغم الحالة المعنوية السيئة التي سيطرت على إيمان، ورغم الحزن الطاغي على فرح إلا أنهم تناولوا طعام الفطور في جو مغمور بالألفة لوجودهم معا في صبحية يوم أحد خريفي، يجلسون معا في حديقة ظليلة، ويتبادلون مواساة نابعة من القلب.

أعدت إيمان القهوة التي تفوح منها رائحة الهال، وحمل يوسف غيتاره وبدأ العزف، ثم راح يغني بصوت متردد أغنية فيروز: «كان غير شكل الزيتون»، ابتسمت دورا وراحت تغني معه، نقلت فرح نظراتها بينهما، ثم غطت وجهها بيديها، فتوقف كلاهما عن الغناء، رفعت يديها عن وجهها حين صمتا، بانت في عينيها دموع حبيسة وهي تقول: «أتمنى لو كان بمقدوري الغناء»، «غني فرح غني معنا» قالت دورا وهي تبتسم للفتاة الكسيرة، عاود يوسف العزف وهو ينظر إلى فرح ويحس أن مشاعره نحوها في تلك اللحظة ملتبسة جدا، أحس برغبة في احتضانها، في مسح دموعها، لكنه أبعد هذه الأفكار سريعا.

في اليوم التالي صباحا جاء يوسف الصغير إلى شقة دورا، قدم لها اقتراحا أن يُساعد فرح في العودة إلى الدراسة لتحصل على الشهادة الثانوية. لاقى اقتراحه ترحيبا من كليهما، وسرعان ما أخذت دورا خطوات لتنفيذ الاقتراح، شراء الكتب المطلوبة، وتسجيل فرح في المدرسة، وتنظيم الأوقات التي يأتي إليها يوسف ليشرح لها دروس الكيمياء والفيزياء التي انتهى منها قريبا.

نمت العلاقة بين الشابين في غفلة عن دورا، التي كانت مبتهجة بعودة فرح إلى الحياة، وبداية تفكيرها بالبحث عن عمل والاستقلال بحياتها بعد مرور شهرين من حياتها في بيت دورا. صارت تغادر البيت وحدها، وأحيانا تغيب لساعات خلال وجود دورا في عملها، قالت إنها تذهب للبحث عن عمل، ثم جاءت ذات نهار وأخبرتها أنها وجدت عملا في مكتبة لبيع الكتب. لم تخمن دورا أن هناك حكاية أخرى تدور في حياة فرح، لكنها لاحظت المكالمات الهاتفية الهامسة، ورسائل الواتساب الكثيرة، وتراجع النظرة البائسة مقابل حلول ابتسامة غامضة مبتهجة. لم تصغ دورا لعبارة هيام وهي تُعلق على حالة فرح وتقول بأسلوب الواثق: «ثلاثة لا يمكن إخفاؤهم: الحب، والحمل، وركوب الجمل.»

24

داخل البيت، رفع يوسف الصغير صوت مايكل جاكسون من جهاز كمبيوتره إلى أعلى درجة لأن جده غير موجود في البيت، سحب سيجارة من درج الكومودينو بجانبه، أشعلها وراح يدندن بصوت مرتفع كلمات أغنية: «You Are Not Alone» عاد منتشيا من لقائه مع فرح التي أخبرته هذه المرة أنها تحبه، وتعاهدا سويا على البقاء معا.

تواجهه مباشرة صورة لأمه هيلدا وهي تضع على رأسها خوذة المراسلين الحربيين وتمسك بيدها ميكروفون. كانت جدران غرفته عبارة عن معرض صور، بعضها لأمه وأبيه معا، وقسم منها صور التقطها أبوه خلال عمله. لعل ما ينغص على يوسف حياته أنه لا يعرف تفاصيل كثيرة عن أمه «هيلدا» إلا من خلال الصور، ومن خلال ما يرويه جده يوسف عنها، لكن ما يعرفه جده معلومات قليلة أيضا، هي مجرد زوجة ابنه التي تعرف إليها وهي في الثامنة والعشرين من عمرها، أي أنه لا يعرف أية تفاصيل عن طفولتها، عن مراهقتها وشبابها، عن سبب هوسها بالعمل، وتركها ابنها برفقة أسرتها لتلحق بمهماتها.

لم يرتو يوسف الصغير من العاطفة الأنثوية في حياته، دائما كانت هناك فوضى قدرية في عالمه تؤدي لإحساسه بالحرمان والنقص. في الصف السادس الابتدائي أحب يارا؛ كانت فتاة سمراء

نحيلة، بعينين سوداوين مستديرتين وشعر طويل بني. لم تكن الأجمل لكنها الأكثر ذكاء وحركة، الأولاد أحبوها جميعا، هي لم تحب أحدا ولم تحب يوسف، ظلت تلعب مع الجميع، كانت نجمة المدرسة في كل شيء، في الدراسة وفي الغناء والتمثيل والإلقاء، وكان هو ولدا خجولا، لا يعرف كيف يلفت انتباهها، ظن أن لون شعره الأشقر، ولغته العربية المكسرة جعلتها تسخر منه في أكثر من مرة ولا تشاركه اللعب، كان يذهب باكيا إلى جده الطبيب الذي يحتضنه ويربت على كتفه ويشجعه على مصادقة فتيات أخريات، لكنه لم يكن يريد محبة أحد في الصف كله إلا يارا.

بعد سنوات كثيرة من حبه الطفولي الذي ظل غامضا وغير مفهوم بالنسبة له، أُعجبت به يارا حين شاهدته يعزف الجيتار ويغني في «بودا بار»، وأُعجبت به حين قال لها إنه يفكر بالسفر إلى ألمانيا بلد أمه الذي يحمل هويته أيضا، رأى التماعة عينيها كأنها ترى أن مستقبله سيكون مختلفا.

لطالما سببت له يارا الإحساس بالألم، تعرف أنه يحبها لكنها تتجاهله كلما حاول التقرب منها. ليلة الاحتفال بالنجاح في الشهادة الثانوية، سهروا جميعا في النايت كلوب، رقصوا حتى الفجر على أغنيات شاكيرا وكاتي بيري، مالت يارا على كتفه، تلامسا من دون قصد أولا ثم عن قصد، وفي ختام الليلة منحته قبلة طويلة لن ينساها، كانت أول قبلة في حياته، لكنه أدرك فيما بعد أنها مجرد قبلة عابرة في لحظة مسرة لا أكثر؛ لأن يارا أعلنت خطوبتها بعد أسبوعين.

لكن الآن، هو يشعر بالغبطة لأن فرح قالت له إنه كل شيء في حياتها، وإن لقاءها به تعويض عن فقدان أهلها ووطنها. سارا معا على كورنيش البحر متشابكي الأيدي، وضعت رأسها على كتفه، وطلبت منه ألا يتخلى عنها. حكى لها عن أحلامه بالسفر بعيداً، ولمعت عيناها وهي تقول له بحماس شديد:

- لماذا لا نسافر من هنا؟
- إلى أين؟
- إلى بلدك، إلى ألمانيا.. أنت تحمل جواز سفر ألمانياً، لنتزوج ونسافر.

ارتبك يوسف من كلام فرح، باغتته جرأتها، لكنه أحس برغبة المغامرة تغمر كيانه كله، تلك اللحظة التي انتظرها طوال عمره، أن يكسر الطوق ويطير بعيدا.

- لا أعرف، لكن جدي!
- جدك لن يعيش إلى الأبد، أنت ستبقى هنا وحيداً فيما بعد، ولن يكون معك أحد.
- لكن، لا أدري...
- إن كنت تحبني، يجب أن نغادر إلى أوروبا، لن أبقى هنا، سأسافر وحدي إن كنت لا تريد السفر، حتى وإن اضطررت للسفر هرباً عبر البحر.
- طبعا أحبك.
- لنسافر إذن.
- ومن أين نتدبر المال للسفر؟
- سوف أتصرف.

25

فوجئ الطبيب قليلا، وهو يرى ديبة تقف عند عتبة البـــاب الخارجي، لكنه استدرك وسارع للترحيب بها ودعوتها للـــدخول. خفض صوت الموسيقى من جهـــاز «الســـي دي» في حجـــرة الصالون، كان يستمع لســـمفونية «العـــالم الجديـــد» لأنتـــونين دفورجاك، وينصت لحركاتها في العلو والهبوط.

خُيل إليه أن ديبة ليست على ما يرام وهي تســـتند بكتفهـــا اليسرى إلى حافة الباب، ورأسها منحنٍ قليلاً. كانت علـــى غـــير عادتها في وقفتها ومشيتها الخاصة التي تتعمد فيها محاكاة طريقة سير جنرالات الحرب، بدت له أنها تضاءلت قليلا، رغم حجمها الضخم بعباءتها الزرقاء التي تغطي جسدها كله، لم تزره ديبة في عيادته منذ أعوام كثيرة، حين جاءت إليه متوددة لتلمح له برغبتها بالزواج منه. لم يكن متفاجئًا فقد سبق هذا العرض ملاطفات ودعـــوات كـــان يعتذر عنها بلطف، لم يكن متفاجئا أيضا لأنه يعرف أن ديبة بجرأتها التي يعرفها جيدا من الممكن لها القيام بأي شيء. يومها تملص مـــن الإجابة المباشرة بكل ما يملكه من لباقة السنين؛ لأن ديبة رغم أنهما جيران منذ سنوات الصبا، ورغم كل ما يعرفه أحدهما عن الآخر عبر رحلة الحياة الطويلة، من المحال أن تكون زوجة له، أو أن يرتبط معها بأي صلة. هو يعرف أنها تحمل له وداً لا يهتم بمعرفة حدوده، لكنه يدرك أكثر أن مرادها من الـــزواج بـــه يـــرتبط بمجموعـــة مـــن

الاحتياجات ليس إلا. وهذا ما تأكد له حين تزوجت بعد مدة وجيزة من مساعدها أسعد، الذي يصغرها بما يزيد عن خمسة عشر عاما، ويُشرف على إدارة أعمالها بتكتم شديد.

منذ ماتت زوجته، كان الطبيب يوسف يُعزي نفسه بعناقات سريعة مع بعض النسوة من الأرامل والمطلقات اللواتي يرتدن عيادته، مبديات رغبة واضحة في الدخول بعلاقة حميمة، وفي كل تجربة وبعد لقاءات لا تتجاوز عدد أصابع اليد الواحدة يحس الطبيب بخيبة الأمل. لم يكن هو الرجل المتلهف على الجنس، في سنوات عمره تلك، كان يبحث عن حالة من الألفة، والرفقة، والمشاركة بالتفاصيل التي يحبها.

تمددت ديبة على سرير المرضى، ورفعت عباءتها إلى أعلى، كاشفة عن فخذين ضخمتين، باعدت بين ساقيها، وهي تشكو من وجود دمل كبير في فخذها الأيمن، ارتدى الطبيب قفازين طبيين، نظر باهتمام إلى مكان الدمل، بدا له أنه ما يزال صلبا، دهنه بمرهم، وكتب للمريضة روشتة وصف فيها اسم مضاد حيوي عليها أن تتناوله كل ثمانية ساعات لثلاثة أيام ثم تأتي إليه، وفي حال لم يكن هناك أي تحسن سيضطر للجوء إلى الجراحة.

تظاهرت ديبة بالتماسك وهي تنزل عن السرير، شكرت الطبيب ثم قالت له:

- في موضوع تاني يا حكيم...

عقد الطبيب حاجبيه مستغربا، ثم أشار لديبة بمواصلة كلامها.

بدأت ديبة بالحديث مباشرة بالموضوع، أنها تنوي بناء مول ضخم، مكان المحلات، والأرض الخلفية التي تمتد بين مجمع الأبنية

و«بودا بار» وبيته، طلبت منه بشكل مباشر التدخل لإقناع إيمان بالتخلي عن المحل الذي تديره كفرن ومقهى. ابتسمت ابتسامة خبيثة وهي تقول إنها تعرف أن له تأثيرا قويا عليها.

نشأت بين الطبيب وجارته إيمان صداقة عميقة تخللتها موجات من العاطفة الوطيدة جمعت بينهما، عاطفة يرجع زمنها إلى سنوات بعيدة بعد انفصال إيمان عن زوجها، الذي كان شائعا في الحي مدى سوء سلوكه معها، وإيذائه البدني لها، وذلك قبل إصابة ساقه بعرج واضح بسبب طلق ناري خلال قتاله في الجنوب، ثم ازداد الأمر سوءاً عقب مرضه، واضطرار إيمان لفتح الفرن والمقهى لتعيل نفسها وبناتها. إيمان أصرت أن تحصل على الطلاق، وهو عاد إلى قريته في الجنوب ليقيم بالقرب من أمه وأخواته، لكن بين حين وآخر يظهر فجأة مهدداً إيمان بأنها لو تزوجت سيقترف جريمة قتل، يُطلق تهديداته وشتائمه على مرأى ومسمع من جميع الجيران، في البداية كانت إيمان تخجل وتحتجب لأيام، ثم مع مرور الوقت وبلوغ فتياتها سنوات المراهقة، صرن يبادرن درءاً للفضيحة بأخذه بعيدا عن المحل، يصحبنه إلى البيت، يأكل وجبة طعام، ثم يأخذ النقود منهن ويغادر.

أما الطبيب يوسف بعد وفاة زوجته، فقد خصص الحجرة الكبيرة التي تواجه الصالون لتكون عيادته الخاصة، اعتاد على استقبال كل سكان الحي والأحياء المجاورة، ومداواتهم بمبالغ رمزية، كان جزءاً كبيرًا من وقته وماله يذهب لمن يرى أنهم يحتاجون حقًا للمساعدة، فالطب بالنسبة له مسألة مبدأ. في سنوات الحرب الأهلية تطوع للعمل مع الصليب الأحمر، تغيب لأسابيع، وتنقل بين

أكثر المناطق خطورة، قام بعمليات جراحية في ظروف غير إنسانية، أنقذ حياة أطفال من الموت، وساعد كبار على تجاوز محن عظيمة؛ كان له قدرة سحرية على التنقل بين مهنته كجراح، وبين موهبته كمعالج نفسي. لكن يبدو أن الحياة ستظل تفاجئه حتى بعد بلوغه السبعين بأعوام، سيقف حائرا لا يعرف كيف يتصرف، سيحتاج إلى لحظة سكون وحكمة ليدرك ما ينبغي عليه فعله. ظل يحدق في ديبة وهو يسمعها تعيد صياغة كلماتها بعبارات أخرى، وتؤكد أنها سترحب بشراء بيته بأي ثمن.

بعد هنيهة من الصمت، رد بصوت هادئ مع ابتسامة جانبية قال:

- لقد عشتُ في هذا البيت طوال عمـــري، لم أغـــادره في أحلك الظروف. كيف تظنين أني سأتركه الآن!

ردت ديبة بنبرة تخفي ارتباكا:

- فكر يا حكيم... فكر. معك وقت، لا تستعجل بالرفض.

- هز الطبيب رأسه، و لم يعلق على كلماتها.

بعد سماع كلماتها أحس كما لو أن حياته توشك أن تتعرض لزلزال جديد.

26

تسمع دورا ثرثرات المسافرين خلفها وأمامها وتنتظر صمتهم. ساعات الطيران وقت مناسب للصمت، بلا اضطرار لكلام إلزامي، لهدر الطاقة مجانا.

هل التحرر من جاذبية الأرض يؤدي للتحرر وقتيا من جاذبية العوالم الضيقة؟

الساعات التي تمر في الفراغ، يغمرها فيها سكون مباشر تتوحد فيه مع ذاتها. ماذا لو أتى الموت في هذا السكون؟ ربما الجميع يفكر في هذه الفكرة، ربما يبتهلون لله أن لا يموتوا الآن، لأن هناك من، وما ينتظرهم!

لكن كل شيء يسير كما هو مخطط له، وتأخذ الأحداث مسارها المعتاد، في تفاصيلها المرهقة، الباهتة، مثل معطف رجل عجوز. المعطف جديد، لكن العجوز هرم.

من جديد عليها الرحيل، لأن كل الأشياء لم تعد كما هي. ولأنها لا تعرف يقينًا لِمَ أتت ولِمَ عليها الرحيل!

أحيانا تحس أن القدر يسخر منها، ليست سخرية بالمعنى المألوف، السخرية هنا ليست المفردة المناسبة أيضا، لكنها وسيلة للتلويح بالأشياء. السخرية تكمن في أن ما كان قد كان. هي التي اختارت التعاطف الإنساني كبديل عن الطقس الديني، و لم تنشغل بالقلق الميتافيزيقي، أو تتخلى عن الإيمان بالله. ها هي تخرج من

قوقعتها لطرح أسئلة مدفونة في العمق.

كان في داخلها سؤال معلق عن السبب في غياب تفسير منطقي لتقاطع المصائر!

كيف يجوز أن تتقاطع حياتها المرتبكة مع قدر رجل غامض، مضطرب، مفجوع من فقد مباغت داهم حياته في غفلة منه؟ لغز علاقتها مع مروان لم تتمكن من تبرير تشكله. ما الشيء الذي جمعها به؟ أي عاطفة بينهما تلك التي كانت و لم تتمكن من تعريفها!

كيف يمكن منح تبرير منطقي لعودتها لبيروت أساساً؟ لدخول فتاة مثل فرح إلى حياتها؛ لمحاولتها تشكيل صداقات تكون بديلا عن أسرة غائبة؟

كل الذين عرفتهم خلال هذه الأشهر يحضرون في ذاكرتها الآن، هيام وايمان وتوطد علاقتها بهما بعد عملية الزائدة الدودية ورعايتهما لها. يوسف الصغير الذي أحست نحوه دائما أنه مبتلى بالفقد عينه الذي ابتليت هي به، لكنه أكثر منها حيرة واضطرابا بسبب حداثة سنه، ربما لهذا تقاطعت آلمه الداخلية مع عذابات فرح...

كأن أرواحا خفية عبثت بواقعها طوال هذه الأشهر، شكلت أيامها وفق هوى مجهول. أرواح هاربة من ساحة الركام الخلفي في مجمع عمارات ديبة، قضت نحبها قبل الأوان، تماما كما قُتلت جمانة قبل موعدها، واختفت جثتها بغموض، لابد أن القتيلة انضمت إليهم فصارت روحا شاردة تُقلق مضجع الأحياء الحيارى، لذا تقاطعت القصص والحكايات والخرافات معا في كارما واحدة مثل

ضفيرة طويلة لامرأة باهرة الجمال أطلت يوما من نافـــذة بيـــت القلعة، تلك كانت أمها غزلان، ربما حامت روحها أيضا في ساحة الركام الخلفي لأن دورا موجودة بالقرب منه.

ما كان قد كان! وكان من الممكن أن لا يكون، لو أنهـــا لم تقفز إلى قلب الدائرة.

ما حدث كان من الممكن ألا يحدث، أو أن يحدث في وقت آخر، يختصر الزمن، ومسافات الرمل الطويلة التي عليها عبورهـــا وحدها من جديد، أو أن تظل جاهلة بما عرفت.

امرأة تعرف أن الأشياء ستمضي لكنـــها تتجاهـــل هـــذه المعرفة، وتتشبث باللحظة الآنية، لأنها تمنحها غبطة وألما مـــؤجلا، ثم تخوض مغامرة انزلاق مستحيلة نحو معرفة كبرى. لكن لم يعـــد ممكناً تجاهل ما حدث، حين وجدت يـــديها مقيـــدتين في بيـــت مروان، حين وجدته مثلا يهذي بأن لا تتركه، وحين فك وثاقهـــا وهو يطلب مسامحته. حكى لها كيف تظهر له جمانة مثل شـــبح، تطوف في المنزل عارية كما هم الأشباح، قال إنها طلبت منـــه أن يُحب دورا كي يحتمل ألمه، وهو نفذ ما قالت له، هو يحبها، لأنه يرى جمانة من خلالها، هكذا قال، ثم اختفى مروان بعد لقائهمـــا الأخير.

وهي لم تخبره أنها كانت تستعد للرحيل، الرحيل بسرعة، كما أتتت بسرعة، تبرعت بالأثاث القليل، وتركت القطة السوداء عند هيام. أرادت السفر بأسرع وقت ممكن، العودة لدوامتها الكبرى، الغرق بعملها، بآلام الآخرين ومحاولة مداواتها، خير من مواجهـــة آلامها.

لكنهما رحلا، يوسف وفرح غادرا معا في ساعات العتمة. وكان عليها ايجاد وسيلة لمعرفة طريقها. تذكرتُ مرة حوارا دار بينهم حاولا يومها أن يخبراها بما ينويان فعله، لكنها لم تصغ لهما بقلب مفتوح، يومها قالت بانفعال:

«هل تظنان أن الحياة سهلة في أوروبا، ماذا ستفعلان هناك؟»

ردت فرح بحزم: «لن أبقى في أي بلد عربي، مهما كان ثمن الرحيل.»

هل من الممكن تجاهل قرار فرح، وإقناعها يوسف الصغير بالسفر؟ لم يعد مجديا اتباع الوهم وتخيل أن فرح ابنتها وأنها ستبقى معها! لكن دورا عادت لوحدها، الطبيب يوسف أيضا وجد رسالة من حفيده يخبره فيها برحيله، تماما كما وجدت هي ذات الرسالة من فرح وهي تخبرها أنها أخذت المال الذي وجدته في الدرج، مع وعدٍ بأنها سوف تُعيده في أقرب وقت. لم تعرف لماذا اختارت فرح الفرار بهذه الطريقة وكان بإمكانها طلب المساعدة للرحيل بطريقة أفضل؟ هل خافت منها ومن شراهتها للأمومة؟ هل كانت دورا تحاول التدخل لرسم حياتها دون وعي؟ أتراها من دون أن تدري قايضتها الأمان الذي منحتها إياه بشرط البقاء معها؟!

يوسف الصغير مضى وراء حلمه بالغناء، ومعرفة تاريخ أمه هيلدا وحكايتها الأعمق والسبب في تخليها عنه. فرح مضت خلف حلم السفر فقط، لتكون رقما بين كل الأرقام المهاجرة، لا... لا، فرح مضت وراء حلم النسيان، نسيان الحرب، وليالي المخيم، نسيان محنة فقدان الوطن والأهل والأمان، واضطرارها للبقاء في بيت ليس لها. مَن قال أن فرح أحبت هذا الاختيار؟

لكن هذا هو الواقع، إنه ثابت جدا في الخـــارج، لا يـــتغير، السماء، والنجوم والكواكب في مكانها، لكن الارتطـــام الكـــبير للمذنبات يحصل في الداخل.

لماذا رفضت أن تقرأ لها هيام ما تخفيه أوراق التاروت؟ لمـــاذا خافت من سماع ما لا تود معرفته؟ كانت تريد الفرار من الماضـــي والبدء من جديد، لكن كيف لم تحدس أن كل الإشارات كانـــت تشي بما يخيف!

هذه هي المعادلة الأكيدة، وهذا هو الواقع الوحيد لها، أنه لا يمكن الحياة في وقت متأخر. ربما هذه هي الحقيقة، وربما لا توجد حقيقة أبدا، إلا أنها الآن جالسة على مقعد في الطائرة المقلعة لـــيلاً إلى برلين. تضع السماعات في أذنها، تنساب موسيقى «بودا بار» في داخلها، وعبر زجاج النافذة الشفاف تُشاهد جناح الطائرة يعبر كتلة كبيرة من غيم الشتاء.

27

سوف تكون كاذباً لو قلتَ إن القتل لا يحمل متعة للقاتل؛ أن تكون جزءًا من لعبة النهاية، أن تكون مسببا، وفاعلا رئيسيا في حركتها، في رؤية الموت وأنت تستدعيه رغما عنه وعن الحياة، في رؤية الدماء بين يديك، والإحساس الأقصى بالخوف. أنت لست أكثر من أداة مستخدمة في هذه اللعبة، بل أنت الأداة الأولى والأخيرة، ثم يكون من الممتع أكثر ألا يُكتشف أمرك، وأن تغادر المكان وتمضي في طريقك، وتحيا حياتك باعتياد غريب، أن تنزل إلى البار القريب وتشرب كأس بيرة عند الظهيرة، وتتفرج على ما يحدث في الشارع ببراءة تامة.

مالك أنتَ وهذا العبث!

كم طعنة تلقاها ذاك الجسد، واحد، اثنان، ثلاثة، أربعة... عشرة... ثم كيف اختفى، أنت نفسك لا تعرف كيف اختفى؟

كم طعنة تلقيتها أنت، وكم مرة طَعنت؟ عبثا لن يُمكنك التذكر أبدا.. لكن المدينة لا تنسى... أنت كنت في كهفك حينها، مُشاركا فاعلا في حرب أهلية طاحنة، وحين خرجت بعد ما يقرب من عشرين عاما، لم تجد كل ما تعرفه، لا أثر للأسواق القديمة، ولا لأماكن كثيرة أحببتها. كان نعيق الغربان يحوم فوق المدينة يومها.

من بعيد كنت تقهقه حين تأتيك أخبار الحرائق، وتعرف أن إحدى رقع المدينة لم يبق منها إلا خرابا يُصافح مثيله.

لِمَ كان كل ذلك القتال؟ أمن أجل احتلال رقعة أخرى من المدينة؟ أم لذبح كل من عليها؟

الآن تُضاف جثة أخرى إلى الجثث... طعنة جديدة غـــادرة للجمال.

والبحر.. البحر أيضا كنت مشاركا في إقصـــائه، وإبعـــاد النوارس... تستغل حالة وجهك الممسوح فتعقـــد الصـــفقات، وتوقع باسم من لا اسم له.

كنتَ سائق تاكسي يجوب الطرقات ويلتقي الغرباء ويستمع لحواراتهم.

كنت بائعا جوالا يبحث عن أكل عيشه.

كنت جاسوسا يرتدي بذلة سوداء أنيقة، يُدخن السيجار، ويبتسم للحضور بدهاء فلا يمكن معرفة لصالح من يتجسس.

كنت نائبا في برلمان متصدع.

كنت صديقا لرجل دين في كنيسة، ورفيقا لشيخ معمم في جامع.

كنت ضيفا مميزا على الشاشات.

كنت «راجح» في مسرحية فيروز، كنت اللا أحد.

لا يمكنك الإنكار أنك تبتهج بالحروب الكبرى والصغرى، التي تبزغ مثل نيزك خطرٍ، رأسه يطل من السماء ويهدد بالسقوط في البحر، فهل كبرت عن تجربة الاستمتاع بالقتل مـــن جديـــد؟ لكنك جائع... جائع جدا الآن، أنت دائما تشعر بالجوع!

ليس مهماً أن وجهك هو الوجه الأخير الـــذي شـــاهدته الراحلة، لكن المهم أن لا يتذكر أحد هذا الوجه، وأنها رحلـــت

بعد أن شاهدتك مرة واحدة أولى وأخيرة، ربما لم تنتبه لأثر رصاصة على جبينك، ماذا لو أنها نجت وظلت حية، ربما تذكرت ملامحك. أنت نفسك لم تعد تذكر كل تفاصيل وجهك القديم، زال مكان جرح الرصاصة وبقي مكانه أثر طفيف للعملية الجراحية التي أجراها لك جراح تجميل معروف.

وها أنت مازلت تستطيع الجلوس هنا، وتدخين سيجارة «داڤيدوڤ»، ومراقبة شاطئ المنارة عند الصباح. لكن عليك الاختفاء، مغادرة هذا المكان كما طلبوا منك. حصلت على الجزء الثاني من اتعابك لكنهم قالوا لك بوضوح آمر: «إختفي».

شاهدت موت زوجتك وتركتها تحت الأنقاض، وحملت جثة ابنك في طريق طويل على أمل أن تجد مستوصف فيه طبيب يقول لك إن ابنك لم يمت، لكنك دفنته بيديك بعدما بردت جثته على ظهرك، صبي في الرابعة من عمره، شعره بني، وعيناه خضراوان. منذ تلك اللحظة مت أنت أيضا، إلى أن عثروا هم عليك، أنقذوك، كان في وسعهم التخلي عنك، لكنهم أخذوك معهم، وأعطوك اسماً جديداً وهوية جديدة، وضعوك في مكان جيد، يوجد فيه طعام لذيذ، وحمام نظيف، فيه شامبو وماء ساخن، ومعجون أسنان، ثم بعد وقت صرت تشاركهم الشراب، وجلسات الحشيش، ساعدك الحشيش، وبعض حبوب النسيان التي أعطوك إياها على تحمل ذكرياتك القاتلة؛ ثم بعد أشهر أخبروك بما عليك القيام به، فتح الباب بالمفتاح، والدخول إلى الشقة، التي تغفو فيها امرأة في سريرها، وليس عليك سوى أن تطعنها طعنه مميتة.

لابأس... خمنت أن تلك المرأة مثل زوجتك أو غيرها، من الممكن مثلا أن تموت تحت الأنقاض مع مجموعة من القتلى الآخرين، ولن يجد جثتها أحد، أو أنها ستتحول إلى أشلاء متناثرة لا يمكن جمعها لو كانت في إحدى الحروب. أليس من الأفضل لها أن تموت في سريرها، وأن يأخذ أحباءها وقتا لوداعها! أليس هذا أكثر راحة للجسد من أن يخترقه الرصاص! لقد فعلت ما طلبوا منك القيام به فقط، لم تأخذ أي شيء من المكان، قمت بالمهمة التي دفعوا لك للقيام بها، ورغبت من كل قلبك بنجاحها، لأنك تحب أن تقوم بها مرة تلو أخرى. لكنك لم تحرك الجثة من مكانها، فكيف اختفت. أنت أيضا لا تدري!

أحقًا لم تكن تعرف من هي، ولا لِم طُلب منك قتلها؟

بعد موتها، صرت تُتابع حكاياتها كل يوم، وكل شخص يضيف وجها جديدا لها؛ لكنك في الحقيقة غير معني بكل حكاياتها، وعشاقها وأحبائها، ومغامراتها الكثيرة، وتلك العرافة التي قيل إنها تنبأت بوجود دماء في تلك الشقة، كل ما يهمك من متابعة أخبارها أن لا يذكر أحد أنه شاهد رجلا يحمل أثر جرح في جبينه يتسلل إلى تلك العمارة، ويصعد في المصعد، ويفتح بالمفتاح ليدخل لتلك الشقة...

صحيح، كيف تمكنوا من أن يعطوك نسخة من مفتاح الشقة؟ يشغلك كثيرا هذا السؤال الذي لم تجرؤ على طرحه أبدا. لكن الغريب أنك صرت تشاهد القتيلة في أحلامك، تأتي إليك برفقة ابنك الصغير، يمسك بيدها ويمشيان معاً، وهي كما رأيتها في تلك المرة ناعمة، مغوية، بريئة، فاتنة.

لم تكن نائمة في سريرها حين دخلت، يبدو أنها كانت تعبر بين الحمام والغرفة، ثم شاهدتك، لم تصرخ، بل شهقت شـــهقة مكتومة إلى الداخل، ربما ظنت أنك شبح أقرع؟ ركضـــت إلى غرفتها، كانت أكثر ضعفا من أن تقاومك.

لكن لماذا تأتيك هادئة في المنام؟ تُمسك يد ابنك وتعبر من جانبك بنظرة عتاب لا أكثر، ترفع يـــدها الـــيمنى وتشـــير إلى جبينك، ثم تلتفت نحو ابنك ويرحلان بعيدا، تشاهد هذا المنـــام كل ليلة منذ ذاك النهار، والآن عليك الرحيل عن هذا المكان، عن هذا البلد، لن تعود إلى مكان الجريمة أبدا، لن تبقى في هذه المدينة الجريحة، سوف تغادر غدا مثل أي شخص عادي، ولـــن تعود إلى هنا أبدا.. فقط كل ما تتمناه أن تستمر هي في زيارتك عبر المنام، أن تأتي إليك ومعها ابنك الصغير كل ليلة، يعبران من جانبك ويمضيان بعيدا.

تمت

بودا بار

لنا عبدالرحمن

هذه المدينة محكومة بعتمة مغوية، تؤدي بكل من يحيا على أرضها إلى إدراك أنها مدينة «البُقع» المتجاورة.

مدينة طبقات حلوى «الميلفيه» شريحة تلو أخرى تفصل بينها طبقة من الكريما السميكة، وفي تجوالك هنا أنت حر بالمطلق، وسجين أبدي، ليس عليك سوى العبث بكل ما كان وسوف يكون، هكذا تتقن فن العيش والتملص مما يُمكن التورط به.

ليس من المجدي أن تنتمي إلى أي شيء، بل من المهم أن تحمل رأسا قابلا للعطب والتشكل من جديد رغم الذكريات السوداء، والقلب الأجوف.

أما البحر...

البحر الشاسع...

بحر هذه المدينة،لغز كبير، شاهد متواطئ على كل من استباحوه. شاهد عليك أنت أيضا.

المدينة غارقة في ظلام قسري، والبحر ليس بخير، لأن وجهه محجوب عن النوارس.

وأنت هنا تمشي وتمشي وتمشي، تتفرج على الشوارع والأحياء والأزقة والبيوت، تهرب، تستمع للهتافات الحقيقية، للتمتمات الخائنة، للصرخات الوقحة وتبحث عن وجهك الذي ضاع منك ألف مرة، وما عليك إلا أن تستمر بالهرب.

ISBN: 978-614-02-1852-9

منشورات الاختلاف
Editions El-Ikhtilef
editions.elikhtilef@gmail.com

منشورات ضفاف
Editions Difaf
editions.difaf@gmail.com

جميع إصداراتنا متوفرة في موقع نيل وفرات.كوم www.neelwafurat.com - www.nwf.com